أحلام مؤنسنة - ١٠ -

العلم وعائلته

بقلم المهندس:
كمال راغب الجابي

العلم هو نبع المعرفة ورافدها. ونقيض الجهل ووائده. وعدو الدجل وخصيمه. والرفيق الذي يستدل به على الطريق. والصديق القادر على إخراج صاحبه من بيداء التيه إلى جنة اليقين.. لذلك كرم الخالق الكريم أصحابه وفضلهم على فاقديه بقوله (هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون..) وشمل بالجمع والتعميم الأفراد وتجمعاتهم وبشكل يمكن معه اعتبار العلم والثقافة التي يفرزها مقياس تقدم الأفراد وتطور الجماعات التي تضمهم. والأمية والجهل الناجم عنها معيار تأخرهم وتخلفها.. وهو في الوقت نفسه، رب عائلة لغوية تعد (العلمانية) بمعنى تقديم العلم على ما هو سواه أحدث مفرداتها وأكثرها شيوعاً بينما يعد (العالم) بمعنى الخلق أقدمها وأشهرها بعد أن انبثقت منها في غابر الأيام مفردة (العالمية) بمعنى شمولية المخلوقات، والتي يطلق عليهم أسم (العالمون) أو (العالمين) دون ترجيح لبعض المخلوقات البشرية منهم على بعضهم الآخر.. وانبثقت منه في حاضرها مفردة (العولمة) التي تعني سعي بعض هذه المخلوقات البشرية لإلحاق بعضها الآخر فيها في ظل الشمولية..

ومن الضروري التوضيح أننا عندما نتحدث عن العلم هنا نعني العلم التجريبي التقني تحديداً. أي العلم الوضعي الذي يمكن تحويله إلى عمل مثمر مفيد. ذلك أن هنالك لبساً أو تداخلاً بين مفهوم العلم والعمل في تقدير الأقدمين ومفهومهما في تقدير المحدثين. كما أن هنالك دمجا ومزجاً بين العلم والفقه وعلم الكلام والأدب بشكل عام والشعر منه بشكل خاص لدى هؤلاء الأقدمين. فنحن لا نكاد نجد عالماً يهتم بالعلوم الحياتية البحتة سابقاً دون أن تكون له اهتمامات فقهية أو كلامية أو أدبية أو شعرية. ويعود ذلك ظاهرياً إلى أن عقيدتنا السمحة أنزلت بلسانٍ عربي مبين من جهة، وشملت الأمور التعبدية مع

الأمور الحياتية جنبا إلى جنب من جهة أخرى. مما دفع أتباعها زيادة في الورع، وإمعانا في التسليم بالغيب، وتماشيا مع بساطة مجتمعاتهم، إلى التصور بتداخل المواضيع الدينية والدنيوية. وسوغت له عدم الفصل بين علوم الدين وعلوم الدنيا. وأما واقع الأمر فإن تعدد الاهتمام يعود في تقديرنا إلى عدم قدرة العلم وحده آنذاك على الإجابة على الأسئلة المطروحة. لأن المعرفة العلمية كانت محدودة وبدائية مما استدعى الاستعانة بفروع المعرفة الأخرى للإجابة عليها. فما لم يستطع الأقدمون الإجابة عليه عن طريق العلم أجابوا عليه عن طريق الفقه والأدب وعلم الكلام. ولعلهم توارثوا ذلك عن الحضارات القديمة التي سادت في المنطقة والتي كان الكاهن فيها هو الطبيب والأديب والخطيب والفلكي والألمعي والعالم اللوذعي..

ونتيجة لذلك لم تجر محاولات جدية في مجتمعاتنا لتطوير جذري في العلوم الحياتية والمبتكرة أو التي جرى جلب بعضها من الصين أو من غيرها كالعلوم المتعلقة بصناعة الورق أو صناعة البوصلة أو صناعة البارود وغيرها. إذ اقتصرت جهود الأقدمين لدينا على إضافة حلقات وسيطة إلى سلسلة تطورها دون الوصول بهذه الحلقات إلى غايتها.. فتحسين صناعة الورق لم يوصل إلى ابتكار الطباعة. وتحسين صناعة البوصلة لم يؤد إلى اختراع المحركات البخارية. وتحسين صناعة البارود لم يقد إلى اختراع الأسلحة النارية.. إذ يبدو وكأن الأسلاف باتكالهم على فروع المعرفة الأخرى فقدوا الرغبة في التخصص وباستمرائهم للراحة والمتعة فقدوا القدرة على استمرار التطور. بينما إضعاف الاتصال مع هذه الفروع جعل الآخرين يوصلون بين المبادرة والمثابرة ويعتبرون الراحة دافعا للتقدم والمتعة حافزاً للتطور وليس كابحاً له مما جعلهم يتابعون المشوار ويواصلون المسيرة..

ورغم ذلك لا يمكن إنكار الابتكارات التي كان لأسلافنا قسب السبق بالنسبة لها. كتوصلهم إلى اختراع البندول في القرن الخامس الهجري الذي نسب اختراعه زورا إلى (غاليليو) في القرن الخامس عشر وإسهاماتهم في مجال الهندسة الميكانيكية التي كانوا يطلقون عليها اسم (علم الحيل) الذي نشط لديهم واستخدموه في استخراج المياه وتوزيعها وتوصلهم إلى تحويل الحركة الدائرية إلى حركة مستقيمة في المضخات. والى المضخة ذات الأعمدة الستة وهي مشابهة للمضخات المتعددة الأشواط حالياً. كما كان لهم بعض الإضافات في مجال صنع الأجهزة البصرية وفي مجال التعدين. وكذلك فإن إسهامهم كان ملحوظا في العلوم الرياضية باعتبار أن الفكر الإسلامي كالرياضيات فكر تجريدي وليس تجسيدي. وعلم (الخوارزميات) ما يزال يحتفظ باسم مؤسسه حتى الآن. لكن ذلك يظل محدوداً وأقل بكثير مما كان ينتظر منهم. ولعل ذلك عائد من ناحية أخرى إلى أن العلماء العرب، على وفرتهم وعظيم موهبتهم، كانوا فرادى. وتبدو فرديتهم بوضوح في عدم ارتكازهم على مدارس أو قواعد علمية متنامية. إذ لم تعمد النظم التي كانت سائدة في مجتمعاتهم إلى إقامة مثل هذه المدارس والقواعد للعلوم الأساسية الموضوعية واكتفت بتأسيس مدارس فقهية أو نحوية وقواعد لعلم الكلام ولم يأخذ تدريس العلوم الأساسية إلا حيزاً محدوداً جداً جانبي وفي وقت متأخر..

ويجدر في هذا السياق إلقاء بعض الأضواء على النظام التعليمي الذي كان سائداً في أرجاء عالمنا المترامي الأطراف وعلى مدار تاريخه. فقد كان التعليم محصوراً في الأمور الدينية ويتم في الجوامع والمساجد، وكان عمل المعلمين التبليغ الديني (وهو عمل

خيري لا على وجه التعليم الصناعي) حسب تعبير ابن خلدون..

وقد استمرت سيادة هذا الشكل من التعليم كما ذكر الأستاذ نقولا زيادة في كتابه (إيقاع على أوتار الزمن) إلى أن برزت أهمية تعليم أمور أخرى مثل اللغة والأدب والخط. فظهرت في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي نوعان من المؤسسات العلمية أولاهما المكتب الذي يدخله التلميذ في سن تتراوح بين الخامسة والسابعة. وثانيهما الكتاب الذي يدخله أو ينقل إليه في سن العاشرة. وابتدأ التلاميذ يتعلمون هذه الأمور في كليهما إضافة إلى العلوم الدينية. ثم ظهر في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي مدارس متعددة في دار الخلافة الشرقية. منها ما قام في نيسابور، ومنها في بغداد، وذلك لصون حرمة الجوامع من المناظرات التي يخرج فيها أصحابها عن الأدب أحياناً. وبعض هذه المدارس كانت وقفاً على الشيعة وبعضها الآخر كانت وقفاً على بعض مذاهب السنة. وكانت المدرسة المستنصرية التي افتتحت في بغداد في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي أول مدرسة درست فيها المذاهب الأربعة جنباً إلى جنب.. وظل للجوامع الدور الأكبر في التعليم إضافة إلى هذه المدارس التي أطلق على بعضها اسم (خزانة الكتب) أو (دار الحكمة) أو (دار العلم) وتقدمت مع الزمن مساجد معينة على سواها وأصبحت مراكزاً لجذب الراغبين في العلم تميز منها ثلاثة مساجد يعدها المؤرخون بمنزلة الجامعات وهي الأزهر في القاهرة.. والزيتونة في تونس.. والقرويين في فاس.. كما تميز النجف الأشرف بوجود مؤسسات هامة لتدريس الفقه الشيعي. وقد كانت بعض العلوم غير الدينية تدرس لماماً وبشكل جانبي في هذه المساجد والجوامع. لكن هذه العلوم كانت تدرس بشكل أكبر وإن كان محدوداً أو نظرياً، وفردياً أو عائليا في البيمارستانات (المستشفيات) والمراصد الفلكية. فأسرة (يختيشوع) على سبيل المثال ظلت تتدارس الطب في بغداد توارثاً الابن عن الأب لسبعة أجيال متتالية.. واكتشاف ابن النفيس للدورة الدموية الصغرى جاء نتيجة التعليل المنطقي وليس نتيجة لعمل تشريحي وذلك لسيطرة فكرة عدم جواز تشريح جثة آدمي أو جسم حيوان على التفكير الديني.

ولم تبدأ الدراسات العلمية بشكل منهجي ومتواضع إلا في نهاية الحكم العثماني نتيجة لمواكبة انتشاره في القارة الأوربية التي انتمى المستعمرون جميعهم إليها. وقاموا بنثر بعض بذوره مكرهين في الدول التي استعمروها ليس برغبة تطويرها بل بهدف تنمية المناخ المناسب لوجودهم فيها واستمرار بقائهم بين جنباتها..

الأمر المستغرب والمؤلم أنه لم يبرز بين علمائنا من نادى بصوت عال وعمل دون ملل أو كلل لتحويل العلوم الأساسية النظرية التي ابتكرها مبدعوهم أو ابتدأوا بتداول ترجماتها من اللغات الأخرى إلى ممارسات عملية مفيدة كما برز (فرنسيس بيكون) في الغرب في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي إثر حوالي قرن من حركة الإصلاح الديني والذي اعتبر أن كل ما لا يجري استخدامه من المعلومات النظرية ليس علماً كما ذكر الأستاذ الدكتور (شاكر مصطفى) في إحدى مقالاته في مجلة (العربي) الكويتية. وأن الدراسة ليست غاية إذا لم تقترن بالعمل. وشبه العمل بالنحل الذي يحول غذاءه إلى عسل، وبالنساء المنجبات اللواتي يرفدن مجتمعاتهن بالنسل الصالح وشبه العلوم النظرية بالنمل الذي يخزن هذا الغذاء دون أن يغير فيه أو بالغانيات اللواتي هن للمتعة فقط وأدان بقوة العلوم التي ترتكز على النصوص وتحليلها وشروحها وتعليقاتها واعتبرها كلاما في كلام. ودعا إلى مدينة العلم الفاضلة وإلى

حكومة العلماء كما دعا إلى الإمبراطورية الإنسانية..

وإذا كان (فرنسيس بيكون) قد نادى وبقوة بالعلم الذي لا يثبت على الورق وإنما يقفز بمجرد تدوينه عليه إلى خدمات تفيد الناس، فإنه قرن مناداته بممارسات فعلية. إذ كان أول من قام - رغم توليه منصب رئاسة الوزارة في بلده إنكلترا - بإجراء تجارب على حفظ اللحم بالتبريد. الأمر الذي أتاح للمهندس الفرنسي الشهير (شارل تلبيية) الذي جاء بعده بتطبيق هذه الأسس على نقل اللحوم المجمدة من الأرجنتين إلى فرنسا. فشق الطريق أمام التكنولوجيا لتستفيد من معطيات العلم. بينما عدم وجود نظائر عمليين له في المجتمعات الأخرى جعلها تتخلف في مجال العلم وتطبيقاته وتتبع خطوات من سبقها للتنعم بإنجازاته..

ولعل من الدلالات البارزة على أهمية جعل العلم هدف رحلة الإنسان ونور طريقه أن فلاسفة قرن الأنوار الغربي وعلى رأسهم (جان جاك روسو) الذين دعوا إلى العقد الاجتماعي بكونه الرابطة بين المجتمع والأفراد المؤلفين له، ونادوا بقيم عامة كالمساواة والحرية والأخوة وبمبدأ لا تفعل للآخرين ما لا تريد أن يفعلوه معك، وتوصلوا إلى إدراج هذه القيم والمبادئ في دساتير الديموقراطيات التي نشأت في القرنين الثامن والتاسع عشر. أغفلوا إدراج العلم في هذه الدساتير من ضمن هذه القيم والمبادئ مما جعل الحضارة الأوروبية التقنية تتابع مسيرتها على هدى رؤى (بيكون) وبدفع من مؤيديه فقط. بينما تنبه الولايات المتحدة الأميركية كما يقول (فرناند سغن) في كتابه (العلم والحياة) إلى هذه الناحية وإدراجها في الدستور الذي أعد معظمه (توماس جيفرسون) مبدأ مفاده أن نشر المعرفة العلمية وجودتها هو هدف أول للمجتمع الأميركي. وهو منبع سعادته وازدهاره. وتأكيدها على ترجمة هذا المبدأ عملياً باعتبار الجامعات الأميركية المقر السامي لسيادة العلم التطبيقي. وتحديد الفيزيائي (هنري رولان) مؤسس أول جامعة في أميركا تدعى (جون هوبكنز) في عام ١٨٧٦ دور الجامعات في الدراسة العلمية للطبيعة من كل الأوجه بما فيها الرياضيات والشعوب القديمة والحديثة وكذلك التعبير الفني (أي الجمع بين العلم والتاريخ والفن) لعل هذا كله وراء القفزات التطورية السريعة التي أجرتها أمريكا في مجال العلم والتكنولوجيا والتي أثارت دول الغرب غير الأميركي وبعض دول الشرق الأقصى كاليابان إلى توسيع خطاها وتسريع مداها للحاق بأمريكا دون أن تتمكن من الوصول إلى ذلك حتى الآن..

ولقد أدى تركيز الاهتمام لدى شعوب الشرق على أنشطة الكلام والإلهام إلى انعكاسات بنيوية على التركيب البيولوجي لأدمغتهم. فنحا الفص الأيمن للمخ لديهم والذي يختص بهذه المسائل إلى النمو أكثر من الفص الأيسر الذي يختص بالمسائل الهندسية والتكنولوجية والذي نما لدى الغربيين أكثر من الفص الأيمن نتيجةً لاهتمامهم بها. وذلك استناداً على المبدأ الذي ينص بأن العضو أو الجزء منه الذي لا يستخدم يضمر والذي يجري استخدامه ينمو ويتطور حسب ما أوضحت البيانات التشريحية الإحصائية الحديثة. والتي جرى تدعيمها والتدليل عليها بملاحظة أن الفص الأيمن وكذلك الأنسجة الرابطة بينه وبين الفص الأيسر، أغزر وأنشط لدى المرأة منها لدى الرجل. وقد جرى تفسير ذلك بأن ممارسات الحجز والقهر على النساء خلال التاريخ جعلتهن أكثر اهتماماً من الرجال بالكلام، وأكثر قدرة على سرعة التعبير عن الإحساس وذلك لإملاء وقتهن ولأن الفراغ يفرض عليهن ترجمة مشاعرهن مباشرة. مما يجعلهن أكثر صدقاً في التعبير عن ما يجول

في أنفسهن. بينما ممارسة السطوة وفرض الهيمنة من قبل الرجال على النساء تجعلهم أقل لجوء إلى فعل الكلام وأكثر لجوء إلى العمل القهري مما يجعل جنس الرجال يحلل ثم يفكر ثم يقرر. أو بمعنى آخر يستعمل كل نصف لوحده. أو بمعنى أدق يقوّم شعوره قبل أن يتكلم لأنه لا يجب أن يكون على خطأ. وهنالك من يعيد هذا المنحى إلى أن الرجل كان يلحق الطريدة خلال فترة الصيد والقنص وكان لا يتكلم حتى لا يشعر الطريدة، وقد توارث ذلك..

* * *

وإذا ما اكتفينا بما ذكرناه حول العلم بعد أن أطلنا الوقوف في محطته، وانتقلنا إلى المحطة التالية وتأملنا في شاخصتها التي تشير إلى اسم العلمنة وأمعنا النظر في أهم أشكالها في تاريخنا العربي مع الأخذ بعين الاعتبار مفهومها النسبي المرتبط بالزمان والمكان واستعرضنا بعض رسائل إخوان الصفاء حولها لأحسسنا بإرهاصات هذا المفهوم فيها حسب القيم التي كانت سائدة في ذلك الزمان. فمذهب إخوان الصفاء حسب رأي (ديبور) في كتابه (تاريخ الفلسفة في الإسلام) "مقتبس وحسب اعترافاتهم من مختلف المذاهب أرادوا أن يجمعوا فيه حكمة جميع الأمم والديانات" وهو مذهب اختياري انتقائي غير تعصبي كما ذكروا صراحة في الرسالة الخامسة والأربعين بقولهم: "ينبغي لإخواننا أيدهم الله تعالى أن لا يعادوا علماً من العلوم أو يهجروا كتاباً من الكتب ولا يتعصبوا على مذهب من المذاهب لأن رأينا ومذهبنا يستغرق المذاهب كلها ويجمع العلوم كلها.." وهم يعتقدون كما ورد في الرسالة الثانية الأربعين: "أن الحق موجود في كل دين" وقد تأثر ابن عربي على ما يبدو بهذا الاتجاه بقوله في الفتوحات المكية" "أما قولك أن الفيلسوف لا دين له فلا يدل على أن كل ما عنده باطل وهذا مدرك بأوائل العقل عند كل عاقل" وهو المبدأ الذي اعتنقه إخوان الصفاء ودعوا له والذي يؤكده قولهم بأن" "ثمة ديناً عقلياً فوق الأديان جميعاً" و: "أن عالم الإنسان مجملته إذا شمله دين واحد وشريعة واحدة كان كإنسان واحد"..

والأمر الملفت والمثير أن اعتناق إخوان الصفاء لمذهبهم الجامع لم يمنعهم من الاعتراف حسب إقرارهم بالمذاهب الأخرى. وهم بذلك ينفون عن أنفسهم خصلة الهوى والتعصب ويعتبرون أن الاختلاف يدعو إلى الدراسة والبحث وأن الغرور والإعجاب بالنفس يسبب الكراهية والحقد ويؤدي إلى التنابذ والتلاعن. كما أنهم يصرحون بدون مواربة بأن الكتب السماوية كما الكتب العلمية والمظاهر الطبيعية والنوازع الفكرية والفنية هي مصدر مذهبهم ويعدون الفيثاغورية والفلسفة الأفلاطونية الحديثة التي تجمع الأفلاطونية القديمة والغنوصية والرواقية والهرمسية من مصادر هذا المذهب..

وإذا كان تنديد الإخوان بالتفرد في الرأي والتحزب له وإدانتهم التعصب المذهبي ودعوتهم إلى قرن القول بالعمل والالتزام بالعفة من أهم الشعارات التي رفعوها والنداءات التي أطلقوها فإن إيقاظ العقل وشحذه وتحفيزه على ممارسة الدور الذي خلقه الله له هو من أهم الوسائل التي وضعوها نصب أعينهم ودعوا إلى اعتبارها حجر الزاوية لتذرية الممارسات الخاطئة من ما خالطها من شوائب ورغائب وما التصق بها من مصالح ومطامح. لذلك لجأوا إلى النقد العقلاني لعوامل تدهور مجتمعاتهم وحملوا أولي الأمر والنهي وزرها وأشاروا إلى استئثارهم بالمكاسب وحمايتهم للفساد وخصوا الفقهاء والمتفقهين بنصيب كبير من نقدهم واعتبروا أنهم يكرسون الدين لطلب الدنيا واعتبروا أن صحوة العقل كفيلة للتصدي لهذه الممارسات الخاطئة..

وإننا لنتصور في هذا السياق أن (إخوان الصفاء) سبقوا (مارتن لوثر) إلى التمهيد لإصلاح مشابه لإصلاحه من حيث الشكل ومغاير من حيث المضمون وأنهم تقدموا عنه في نثر البذور التي تعهدها كثيرون بعده بالعناية والرعاية إلى أن أنتجت شجرة العلمنة بحلول الثورة الفرنسية بينما عدم تعهد من جاء بعد إخوان الصفاء بعناية كافية لما جاؤوا به أدى إلى تشظي ثمرات هذه البذور وتفرعها بشكل عشوائي ولعل سعي إخوان الصفاء إلى ترويج إصلاحهم سراً وليس علناً خلافاً لما قام به لوثر بتعليقه لمبادئه الثمانية والعشرين التي تضمنت هذا الإصلاح على جدار إحدى الكنائس الألمانية هو الذي جعل التعامل مع الإصلاح الذي دعا إليه الإخوان محصوراً بفئة محدودة من الناس. إضافة إلى أن تركيزهم على الكلام المعسول والأفكار المجردة أكثر من تركيزهم على نقاط محددة بعينها، وتأكيدهم على السعادة الروحية أكثر من المادية وإهمالهم لموضوع المرأة واعتبارهم أنها غير قادرة على التفكير السليم ومعاملتها بدونية، بالإضافة إلى عدم دعم أحد من الولاة لدعوتهم كما حصل مع لوثر بسبب انغماس هؤلاء الولاة بالفساد وخشيتهم من تأثر مصالحهم بها.. لعل ذلك كله من الأسباب المباشرة التي حالت دون تحقيق هذه الدعوة لأهدافها بالشكل الذي حققته دعوة (لوثر) اللاحقة. ومن هنا يمكن أن نفهم وصف (السجستاني) لأفراد هذه الجماعة بقوله: "إخوان الصفاء تعبوا وما أغنوا، ونصبوا وما أجزوا، وحاموا وما وردوا، وغنوا وما أطربوا، ونسجوا فهلهلوا.." أو فهلهلوا..

وإذا كانت (العلمانية) أحد أسباب تحرر الغرب كما يقول الدارسون، باعتبارها جاءت كرد فعل على الكنيسة، التي كانت مع الجهل ضد العلم، ومع الفردية ضد الحرية، ومع الملوك ضد الشعوب، ومع المالكين ضد الفلاحين. وهدفت إلى تقييد دور هذه الكنيسة وتحديده وتحييده، وإطلاق العقل من عقاله والإرادة من معقلها للتصدي للمشاكل التي أفرزتها هذه الأوضاع.. فإنه يفترض أن لا توجد مثل هذه المشاكل في الشرق لعدم قيام نظام كنسي فيه. لكن وجود صور مقابلة لهذه المشاكل في الماضي واستمرارها في الحاضر يعني أن هنالك أفكاراً مسيطرة مشابهة للأفكار التي حاولت الكنيسة أن تفرضها في العصور الوسطى. وتخلص الشرق من هذه الصور يتطلب تقييداً للأفكار التي تنادي بها وتحديدها وتحييدها أيضاً حتى يمكن للعقل والإرادة لديه من أن يؤديا دورهما في تطوير مجتمعاته..

* * *

وإذا اكتفينا أيضاً بهذا القدر حول (العلمانية) التي تسلل إليها عبر التاريخ ولا يزال يتسلل إليها كم متزايد من الأفراد والأنظمة سراً دون أن يجرأوا على الإعلان عن هذا التسلل خشية من ردود الفعل المتزمتة التي لا تزال تسود في بعض المجتمعات الشرقية. وانتقلنا بتصوراتنا إلى المحطة التالية التي يطلق عليها البعض اسم (العولمة) ويطلق عليها البعض الآخر اسم (العالمية) وكلا اللفظين مشتق من العالم الذي هو منشق أصلاً من (العلم) وابتدأنا بالعولمة التي هي في الوقت الحالي مصطلح غربي حديث وخبيث رغم كونه مصطلح شرقي قديم وحميم. وليس أدل على شرقيته وحميميته من أن جميع رسائل السماء أنزلت في الشرق كما هو معروف وبأن الله وصف نفسه بأنه رب العالمين، وأن كلمة العالمين تحمل آفاقاً إنسانية وكونية بدليل أن آخر رسالات السماء والرسالة التي قبلها أنزلتا لكل الناس بعد أن قام أصحاب الرسالة التي سبقتها بتحريف مبادئها وجعلها خاصة بهم دون باقي العالمين.

ولدى تمعننا بمصطلح العولمة بمفهومه الغربي الدارج فإننا نجد بأنه مصطلح

إشكالي يظهر غير ما يبطن ويوحي بغير ما يخفي. فبينما تعلن لافتته عن شعار الحرية والتعايش الشامل بين المجتمعات البشرية كافةً، وعن مبدأ القفز فوق الحدود السياسية وعدم الولاء إلا للمصالح الاقتصادية عن طريق تعميم نظام وقيم الانفتاح على العالم وجعل السوق هو الذي يسوق أموره تنبئ حقيقته بنية أقوى دول العالم على السيطرة عليه ورغبتها في التلاعب بمقدراته والتحكم بثرواته. حيث يطلق الباحث الأميركي (ريفكين) على المجتمع الذي ينتمي إليه اسم (مجتمع ديكتاتوريات السوق الحرة) ويصف العولمة التي ينادي بها هذا المجتمع ويسعى إلى فرضها باعتباره أقوى دول العالم بأنه مجتمع الخمس أي أن خمس السكان هم المنتجون والأربعة أخماس الباقية هي العاطلة عن العمل (وهنالك من ينادي بالقضاء على هذه الأربعة أخماس الباقية وإبادتها) لذلك تبدو هذه العولمة وكأنها الشكل الحضاري والأكثر قسوة للاتجاه الاستعماري الذي تبناه (اسكندر ذو القرنين) والذي كان يحمل على كل منهما طرفا من أطراف العالم والذي يجسده حالياً (بوش ذو القرنين) قرن الأب الذي يحمل عليه عدوانية أمريكا وعنصرية (فوكوياما وهنتجتون) وقرن الابن الذي يحمل عليه همجية (الانكل سام) وعنجهية من يدعون بأنهم من نسل سام..

ولعل من الأفكار الجديدة التي طرحها أخوان الصفاء فيما طرحوه بهذا السياق إذ اعتبروا أن الشعوب متشابهة والقوميات متقاربة في تكوينها الفطري وإن كان لكل منها مزايا خاصة وصفات غالبة ونفوا فكرة جمع هذه الخصال في قومية معينة وشعب محدد بينما ذكروا بأنها قد تجتمع في أشخاص بعينهم وأوردوا أن الكمال الإنساني لدى الأفراد يوجد في العالم الخبير الفاضل الذكي المستبصر الفارسي النسبة العربي الدين الحنفي المذهب العراقي الآداب العبراني المخبر المسيحي المنهج الشامي النسك اليوناني العلوم الهندي البصيرة الصوفي السيرة..

ولم يتطرق إخوان الصفاء إلى فكرة ضم العالم تحت قيادة واحدة وإرادة منفردة كما يبدو من مصطلح العولمة الحديث لأنهم كانوا يؤمنون بفكرة تداول السلطة بين أمم هذا العالم ارتكازاً على مبدأ قران الكواكب الذي هو اجتماع عدد منها في برج واحد. وقد حاولوا استنباط معطيات محددة من هذا المبدأ لم تكن صحيحة مثل اضمحلال الدولة العباسية بعد ٢٤٠ سنة من قيامها (أي حوالي ٣٧٣ هـ) وقيام دولة إخوان الصفاء بدلا عنها الأمر الذي لم يحدث مما سوغ لبعض المفكرين مثل (الدكتور طه حسين) أن يتصوروا بأنه كان للإخوان أغراض سياسية للوصول إلى الحكم عن طريق قلب النظام العقلي القائم. وقبول هذا التصور لا ينفي كون الإخوان كانوا يستلهمون الرؤى المشتركة والمشاعر المتناغمة ويستنهضون الهمم لتعميق المعرفة واعتبارها الولادة الثانية أو ولادة الروح بعد ولادة الجسد..

وباعتبار أن العولمة وكذلك الأنسنة هي استمرار لتراكم تاريخي وليس قطعا تاريخيا والقيام ببداية جديدة فإنه يمكن اعتبار إخوان الصفاء من الدعاة البارزين (للعالمية) (وليس للعولمة) وأنهم من الفئات التي دارت في فلك وحدة الجنس البشري ليس تحت شعار (دين السوق) الذي ترفعه الولايات المتحدة حاليا وإنما تحت مظلة (دين العقل) التي رفعتها هذه الجماعة وانضم إليها في قادم الأيام بعض المتصوفة مثل الحلاج وابن الفارض وابن عربي وعبد الكريم الجبلي الذين اعتنقوا أيضا فكرة وحدة الوجود لأن الوجود هو الله وكل الأديان من عنده ومثل (راماكريشنا) من الهند الذي كان ينادي بالمحبة الكونية الشاملة..

وكان قد سبق إخوان الصفاء بعض الدعاة إلى (العالمية) أو ما يمكن أن نطلق عليه اسم (العولمة المؤنسنة) والذين كانوا يدعون إلى توحيد دول العالم دون أن يكون لأقواها ميزة التسلط عليها منهم الرواقيون الذين أسسهم زينون عام ٣٠٠ ق. م بعد أن تأثر بالنزعات الشرقية إثر غزو إسكندر المقدوني للشرق فدعوا إلى المواطنة العالمية. كما كان قد واكبهم أبو النصر الفارابي والذي لقب بالمعلم الثاني باعتبار أنه كان يطلق على أرسطو اسم المعلم الأول والذي نادى بوجوب اتحاد الشعوب تحت رئاسة فردية أو جماعية العبرة فيها للصفات الأخلاقية وليس لمظاهر القوة.. وأما من أتى بعدهم فكثيرون تباينت درجة أنسنة العولمة التي نادوا بها وجرعة أخلاقيتها وقوة شحنتها بتباين قناعاتهم وتوجهاتهم منهم (النورانيون) في ألمانيا أو جمعية الشعلة البارافية الذين كانوا ينادون بجمع البشر برابطة خالدة وجعلهم يعملون كرجل واحد. ومنهم الفيلسوف الألماني (عمانويل كنط) الذي دعا إلى مجتمع عالمي يسود فيه سلام دائم. ومنهم الفيلسوف الفرنسي (أوغست كونت) والذي دعا إلى توحيد دين الإنسانية ومنهم الفيلسوف الإنكليزي (برتراند راسل) الذي دعا إلى حكومة عالمية ذات قوة تشريعية وتنفيذية وعسكرية لا تقاوم ومنهم العالم (ألبرت أنشتاين) الذي حمل الفكر المثالي والواقعي معاً واعتبر البحث العلمي هو الدين الكوني وآمن بالإحساس الصوفي بقوانين الكون. ومنهم المفكر الإيطالي (اوريليوبيش) أحد مؤسسي نادي روما الذي دعا إلى حكومة عالمية والذي كان يرى كما يرى (بطرس غالي) الأمين العام السابق للأمم المتحدة بأن هذه المنظمة والمؤتمرات العالمية تقوم بهدوء بنسج الشبكة التي ستحقق في النهاية تضامن المجتمع الدولي وغيرهم كثيرون.

وبعد فإن الإنسانيين من البشر يرون بأنه إذا كانت الدعوة إلى العولمة في الوقت الحالي تتغلب على الدعوة إلى (العالمية) أو (الأنسنة) كما يتصورونها فإن مزيدا من التصورات العملية المخلصة المقرونة بمزيد من الجهود الفعلية أمران على غاية من الأهمية لتصحيح الأوضاع وتعديل المسار وتغليب الأنسنة وجعلها المحور والمدار.

إذا كانت الرؤى العلمانية التي نثرها إخوان الصفاء في رسائلهم لم تؤت أكلها والجهود التي بذلوها لوضع هذه الرؤى موضع التنفيذ لم تكن بوزن هذه الرؤى ولا بحجمها فإن مزيجاً مناسباً منهما معاً تفرضه طبيعة العصر وحتمية اللحاق بالركب..

وإذا كان العلم قد اختلط في الماضي بالفقه وبالشعر وبالتأويل لدى أغلب العلماء وبالفلسفة عند إخوان الصفاء فإن اختلاطه بالبحث والفكر وبالتحليل والتقانة في الحاضر أمر حتمي لا غنى عنه ولا جدال فيه ولا بديل له لمجاراة الآخرين ومباراتهم لدخول حلبة السباق في مضمار التطور والتقدم..

وإذا كان من سبقنا على طريق التحضر قد أخذ لب ثقافتنا المتمثل بالوسطية والعقلانية وأخذنا منه قشور حضارته المتجسدة بالترف الاستهلاكي والانفلات الأخلاقي. فقد آن الأوان لكي نستعيد هذا اللب وأن ننبذ تلك القشور.. وحسبنا أن نبدأ بالعلم وأن نضعه نصب أعيننا ونركز على جانبه التقني.. فالتقانة هي الحلقة الأساس في هذه السلسلة والمحطة الأولى في هذا المسار. فعندما نصبح مع العلم والتقنية على وفاق ورضاء ونتغلب على ما اعترى علاقتنا بهما من شقاق وجفاء نكمل ولو بشكل متأخر ما بدأ به إخوان الصفاء وخلان الوفاء.. وجميع الذين يرنون إلى مصلحة الإنسانية جمعاء..




الرجلُ المُستَعمِر..

شعر الدكتورة: سعاد الصباح

يحتلُّني حُبّكَ من الجِهاتِ الأَربعْ

ويرفَعُ راياتِهِ على أقاليمِ أُنوثتي

جزيرةً... جزيرةْ

وضَفيرةً... ضَفيرةْ

أيُّها الحاكمُ بِلا مراسيم، ولا بَرْلمان... ولا

استفتاءٍ شعبيّ

أيها الاستعماريُّ الكبير...

يا أجملَ البَرابرَة...

وأعْدَلَ الطُّغاةْ

أحبّكَ... وأعرفُ أنكَ مُغْتصِبٌ للسُّلطَهْ







أحبّكَ... وأعرف لا شرعيةَ احتلالك

أحبّكَ... وعرف عبثيّةَ الصراعِ معكْ

ومع هذا...

لا أطالبُ بِخلْعكَ عنِ العرش...

لأنني لا أعرفُ أنْ أحكمَ وحْدي...

إنّ كلَّ الكتُب يمكِنُ أن يَنتهي الإنسانُ منْ

قراءتها... إلا كتابَك... فكُلما تصوَّرْتُ

أنّني نجحْتُ في الامتحان، رجعتُ إلى

أولِ السطر...

أنتَ مثلُ غاباتِ أفريقيا كلَّما تَغَلْغَلْتُ في

مجاهيلِك... وسبحتُ في أنهارك...

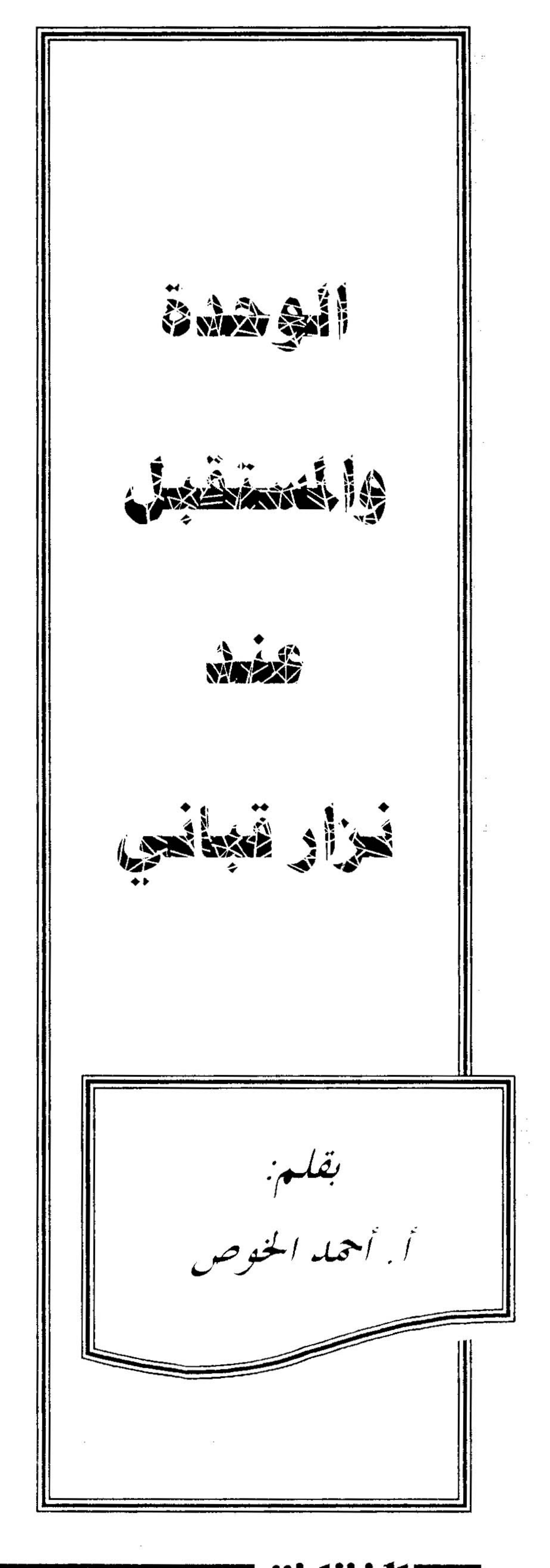
وغرقتُ في أمطارِ حُبّك... أكتشفُ أنني

لم أزَلْ في أوّلِ الطريق...

أنتَ يا أيّها المتجذّرُ في الزمانِ والمكان

ساعدْني كي أقتلِعَكَ من ذاكرتي.



لم يتحد العرب في يوم من الأيام إلا كانوا أقوياء على أعدائهم، أشداء على المستعمرين الذين جاؤوا إلى بلادنا من كل حدب وصوب، وما من كارثة نزلت ولا مصيبة ألمت إلا تداعى الوطن لها بالسهر والحمى. وكما جاء في الحديث النبوي الشريف: (المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً). ولقد كانت الوحدة العربية قدر الأقدار، وقمة القمم، وذروة الذرا، والوحدة التي وجدت كانت صمام الأمان للشعوب التي استظلت برايتها على الرغم من الدويلات الصغيرة التي قامت هنا وهناك، إلا أن الآلام والآمال المشتركة هي القاسم المشترك بين هذه الشعوب، وقد قال الله سبحانه وتعالى:

﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ ﴾ [الأنبياء: ٩٢].

وفي عصرنا الحاضر شنت تركيا وفرنسا وإنكلترا حملات شعواء لتذيب العنصر العربي من الوجود، ولكن بئس ما فعلت لنفسها ونعم ما فعلته لنا، حيث تفاقم المد القومي العربي، وأخذ يتصاعد فشمل الأقطار والشعوب والأفكار حتى أصبح من لا ينادي بغير هذه الشعارات عميلاً خائناً لوطنه وقومه ودينه.

وإذا كانت إسرائيل خنجراً مسموماً زرع نصله في قلب الوطن العربي، وفي أقدس الأقداس، فإن المد القومي قد تنامى بسرعة البرق ليواجه هذا العدو الشرس وما يحمل في جعبته من قنابل نووية وذخائر معلوماتية متطورة، عكست على هذه الدولة المزعومة تطور صناعتها حتى وصلت إلى اختراع طائرة بلا طيار.

والسؤال الذي يفرض نفسه علينا: كيف نواجه هذا الاستعمار الاستيطاني ونحن متفرقون؟ ونحن متشرذمون؟ ونحن من يقتل بعضنا بعضاً بلا وجل ولا خجل.

ومن هذا الموقع المؤلم صرخ نزار قباني وأعلى صراخه في وجه ملوك الطوائف كما فعل المتنبي بالواقع السياسي لعصره، يقول نزار:

«ويظل غضب المتنبي على الواقع السياسي لعصره شرعياً ومبرّراً.. ويظل صراخه في وجه ملوك الطوائف شرعيّاً ومبرّرا .. حتى شتائمه لها في الطبّ النفسيّ ما يبرّرها.. لأن الرجل في أعماقه كان عربيّاً ووحدويّاً وثوريا.. ولكن ارتطام حلمه بالواقع التجزيئي العربيّ، أخرجه عن طوره، فاختار العصيان والخروج على القانون.

والخروج على القانون، هو القاسم المشترك لكل الشعراء العرب اليوم، إذ لا سبيل لكتابة شعر عربي جيّد وجديد. دون التصادم مع التقسيميّين، والشعوبيّين في الوطن العربي.

وأمام هذا الثوب المرقّع بألف وصلة، وألف لون وألف عشيرة، وألف دجّال.. وألف شيخ طريقة.. وأمام هذا الثوب المرقّع الذي هو الوطن العربي لا يمكن للشاعر أن يسكت على هذا الترقيع القوميّ الذي يشاهده، وإلا كان هو نفسه شاعرا مرقعاً..».

والوحدة العربية التي رأينا طلائعها بين مصر وسورية، وكانت هاجس كل مواطن عربي شريف، يرى أن بلاده لا يمكن أن تتقدم ولا أن تتطور إلا إذا كانت الوحدة التي ننشدها قائمة في قلوبنا لتقام على أرضنا. لذلك خاف المستعمرون والمضللون من أول وحدة قامت في العصر الحديث بقيادة رئيس الجمهورية العربية السورية في ذلك الوقت الرئيس المرحوم شكري القوتلي وبين الرئيس الراحل جمال عبد الناصر الذي أصبح فيما بعد رئيسا لدولة الوحدة التي حاول المستعمرون والخونة أن يَقسموا عراها ويبدّدوا آمالها قبل أن ترى النور فتشمل باقي الأقطار العربية الأخرى ولقد أدرك شاعرنا العظيم هذه القضية إدراكاً لا يوازيه إدراك. فرأى ضالته المنشودة في قيام دولة الإمارات العربية المتحدة فهي الحلم الكبير الذي طلب الشاعر أن يحققه بعد الوحدة التي قامت بين مصر وسورية حيث يتحدث عن الحلم الجميل الذي قام في دولة الإمارات العربية المتحدة قائلاً:

«ودولة الإمارات العربية المتحدة هي أحد الأحلام المدهشة في تاريخ التخيّل العربي، وهي واحدة من التجارب الوحدوية العربية الفذّة التي يلجأ إليها العربي من حين إلى حين.. ليؤكد ذاته الواحدة.. ويحفظ نوعه وعرضه وتراثه، وينتقم – ولو انتقاماً متأخرا – من حكم ملوك الطوائف، ومن الفكر الفئويّ والشعوبيّ، والتجزيئيّ، الذي جعل من أمّتنا العربية فتافيت ورق تمضغها الريح..

إن دولة الإمارات العربية المتحدة هي الحلمُ الوحدويّ الشعريّ الثاني، بعد الحلم الوحدويّ الأوّل الذي حققته سورية ومصر عام ١٩٥٨.

وإذا كان الحلم الأول قد تكسّر نتيجةً للنرجسيّة، والأنانية، وضعف البصر والبصيرة، فهذا لا يعني أن الحلم بحد ذاته كان هَشّاً.. ولكن الذين رأوا الحلم البنفسجيّ الجميل لم يتمسّكوا بخيوط الحلم.. فطار منهم.. درس جميل في القومية العربية يأتينا من الجناح الشرقي لشبه جزيرة العرب.

ومهما يكن من أمر، فلا خيال العربي ينتهي. ولا مخيِّلتُهُ تتوقف عن توليد الأفكار والأماني الوحدويّة، وليس الزواج السعيد الذي عقدته الإمارات العربية فيما بينها في ٢ ديسمبر "كانون الثاني" ١٩٧١، سوى دليل على أن العربي وحدوي بطبعه».

ولم ينسَ شاعرنا أن يبحث عن العالم العربي فيجده مشغولاً بنزاعاته العشائرية وحواره اليومي، فيقول في أحد مهرجانات الشعر التي تعتبر عرساً من الأعراس، فيقول:

«والشعب العربي في دمشق، أو بغداد، أو الخرطوم، يعتبر الأمسية الشعرية عرساً من الأعراس، ومهرجاناً قومياً يحرص أن لا يفوته».

«المرافئ المعلومة لا تثير شهيتي. فأنا الذي أكتشف مرافئي. أنا الذي أخترعها. وإذا كان مركبي مجنوناً – كما تقولين – فإن هذا العالم كله مجنون. والعالم العربي الذي أنتمي إليه، هو سيّد المجانين. سياسته مجنونة، وتصرفاته مجنونة، وخلافاته مجنونة، وإذاعاته مجنونة. وتلفزيوناته مجنونة.. وأنا – شئتُ أم أبيت – جزء من هذا العالم العربي. جزء من تاريخه، جزء من غضبه، جزء من الزلازل التي تتجمع في أحشائه، جزء من انتصاراته، وهزائمه، وانهياراته العصبية...

وهكذا، فإن صراخ الشاعر العربي صراخ مبرر، وجنونه جنون شرعي، لأن كل ما حوله يدفعه إلى الصراخ والجنون. أما العالم العربي، فهو مشغول كالديكة، بنزاعاته العشائرية، وحواره اليومي بالأسنان والأظافر، بحيث ليس لديه وقت لقراءة الشعر أو لسماعه.

والحقيقة أن الشعر هو سفير المحبة إلى الشعوب العربية والعالم، فإذا كانت الأنظمة لا تستطيع أن تتفق مع بعضها، فليتركوا للشعراء هذه المهمة.

وإنه ليسعدني ويشرفني أن أقول: إن قصائدي جمعت الشعوب العربية، ووحّدتها، أكثر مما فعلته جامعة الدول العربية منذ تأسيسها».

والوحدة الثقافية التي أرسى دعائمها الإسلام العظيم قد "قولبت" الجميع في بوتقة واحدة من العادات ومن الأخلاق ومن التقاليد والثقافات فأصبح المجتمع فرداً واحداً، أما بعد الهبوط الثقافي فالعالم العربي كله يمر في حالة هبوط ثقافية فيقول نزار عن هذه الحالة المتردية:

«أليس العالم العربي، وحدةً ثقافية متكاملة؟ أم أن الأخوة المصريين لهم رأي آخر؟

إن الهبوط الثقافي ليس وقفا على مصر وحدها. فالعالم العربي كله يمر في حالة هبوط ثقافية، وسياسية، وقومية. لا وصف لها.

نحن نعرف أن مصر هي «أمّ الدنيا» وهي تعرف أننا نحبها (قدّ الدنيا).. ولكننا نرجو من أصدقائنا المصريين أن لا يبالغوا في النرجسية وعبادة الذات، لأن فرض «الأستذة» بالإكراه، ليس من أخلاق العلماء والمثقفين..

فشمس الإبداع قد تطلع مرة من القاهرة.. ومرةً من بلاد الشام.. ومرةً من بلاد ما بين النهرين..

وليس ضرورياً ولا مستحباً، أن نقول: إن شمس الإبداع هي مصرية، أو سورية، أو لبنانية، أو عراقية. أو فلسطينية، أو جزائرية.

فهذا الكلام الفنوي والإقليمي تجاوزه الزمن.. كما تجاوزه الفكر العربي الوحدوي».

وإذا كانت الوحدة بين الأقطار العربية بعيدة المنال، وبعيدة التحقيق في أعين العرب الذين ينظرون بمنظار التفرقة والتشرذم والفردية والنرجسية التي طالما أبعدتنا كثيراً عن أهدافنا في الوحدة فإن هذه الفترة الثقافية في إطارها التاريخي قد عدها نزار قباني فترة مرضية ستمر لا محالة، لأن صحة الوطن من صحة الثقافة والشعر الذي يجب أن يبقى دائما واقفاً على قدميه، حيث يقول:

«لا يمكن فصل الشعر عن بيئته، ولا الثقافة عن إطارها التاريخي. ففي هذا الزمن العربي الرديء، لا يمكن للشعر أن يبقى في خيمة أوكسجين حتى لا تصيبه الجراثيم. إن صحة الشعر من صحة الوطن. وما دام الوطن العربي يعاني من الحمى. والهستيريا والانهيارات العصبية، فإن صحة الشعر تعبانة جداً.

غير أن هذه المرحلة المرضية من تاريخ الأمة العربية لا يمكن أن تستمر، لأنها حالة شاذة. ولا بد للضمير العربي أن يصحو، وللوجدان القومي أن يتحرك، وللإنسان العربي أن يجد نفسه بعد هذا الضياع الطويل. والشعر في هذه المرحلة المالحة مصاب بالإحباط والقنوط، ولكنه لم يصل إلى مرحلة اليأس. إنه قادر دائماً أن يفجر الماء من أعماق الصخر، ويخترع النجوم في عزّ الظلام، ويزرع الورد الأبيض في الأرض الخراب.

إن الشعر يجب أن يبقى واقفاً على قدميه. ويجب أن يستمر في المقاومة، والدفاع عن المثل العليا، لأن الشعر إذا سقط، سقط معه جهاز المناعة في جسد الأمة العربية.

إذاً.. ممنوع على الشعراء العرب أن يستقيلوا.. أو يهربوا.. أو يستسلموا.. أو يسقطوا في اللون الأسود.. لأن كلماتهم الرائدة ستقرر مستقبل هذا الوطن»..

وها هو ذا الشعر إلى جانب النثر في حرب دائمة لوقف المد اللا قومي الذي يدعو إلى التجزئة وإلى نزف الدماء وكيف نعبر عما في داخلنا سواء أكان ما في هذا الداخل من يأس وما فيه من أمل ينير الدرب أمام الجماهير، حيث يقول في قصيدة «كتابات على جدران المنفى»:

كيف سأوقفُ هذا المدّ اللا قوميّ،
وهذا الفكرَ التجزيئيَّ،
وهذا المطرَ الكبريتيَّ،
وهذا النزْفا؟
كيف نُعبّرُ عن مأزقنا؟
كيف نُعبّرُ عمّا يُكْسرُ في داخلنا؟

ولقد مر علينا عشرون عاما ونحن نقيم دولةً قبلية هنا، وثانية دولةً طائفيةً هناك. وثالثة دولة مالية قريبة من السماء، ورابعة دولة مخفية تحت الأرض. وننسى حدود الوطن العربي الكبير، ونعبد كل يوم وثنا جديداً، يقول نزار في القصيدة نفسها:

لقد مرّ عشْرُون عاماً علينا
لقد مرّ عشرون عامْ
ونحنُ نؤسّسُ حُكْم القبيلهْ
ونُلْغي حُدُود الوطنْ
ونَرْفعُ صورةَ شيخ القبيلهْ
ونعبُدُ في كلِّ يومٍ وثنْ

وعلى الرغم من أننا "وحدويون" ندعو إلى الوحدة جهاراً وعلانيةً إلا أن بلادنا مقطعةٌ إرباً إرباً، والمصائب تنهال على شعبنا والويلات تحل بأرضنا، وقد أدرك هذه الحقيقة

نـزار فقـال فـي قـصيدة «إفادة في محكمة الشعر»:

وحْدويّــــونَ!! والـــبلادُ شَـــظَايا
كـلّ جـزءٍ مــن لحمهــا أجــزاءُ

وهــذه الحقـيقة المُرّة التي أذاقتنا ما أذاقتـنا، وأطعمتـنا مـا أطعمتنا كانت بسبب الانفـصال بـين أجزاء الوطن العربي حتى أن حافظ إبراهيم قال:

وإذا فــرّق الـــرعاة اخـــتلافٌ
علّمــوا هــارب الــذئاب التجــري

وكـذلك قـال نـزار قباني في قصيدة «مواويل دمشقية إلى قمر بغداد»:

لــم نُفــرّقْ مــا بــين شــعب وشــعب
كـيف يرضـى لـونُ الـسماء انقـساما؟

وطـــنٌ واحـــدٌ.. رســـمناهُ قَمْحـــاً
ونخـــيلا، وأنْجمـــا، ويمامـــا

نَيْـنوى.. الـبُوكمالُ.. طـرطوسُ.. حمْصٌ
بابـــلٌ، كَـــرْبَلاءُ، رَدّي الـــسلاما..

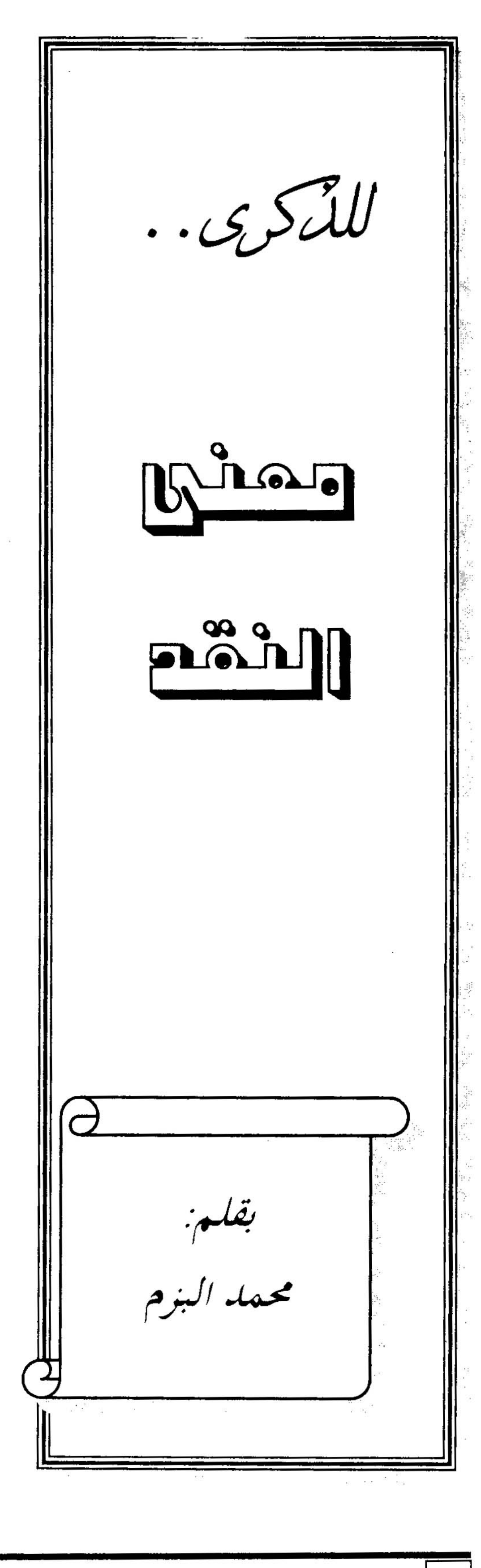
وَطَـــنٌ واحـــدٌ.. ولا كـــان شـــعْري
لـــو يُغنّـــي قبـــيلةً.. أو نظامـــا..

ويعقـد الـشاعر نزار قباني الأمل في بـناء مـستقبل أفـضل على الأطفال الذين هم سـنابل الآمال ومعقل الرجاء ومبعث المروءة والوفاء لهذه الأمة العظيمة التي هي خير أمة أخـرجت للـناس، فـيقول في قصيدة «قصّةُ راشيل شوارزنبرغ»:

.. وجاءَ أغْرابٌ مع الغيابْ
من شرقِ أوروبا..
ومن غياهب السجونْ
فأتلفوا الثمارْ..
وكسّروا الغصونْ
وأشعلوا النيران في بيادر النجومْ
والخمسةُ الأطفال في وُجُومْ
والليلُ في وجومْ..
واشتعلتْ في والدي كرامةُ الترابْ
فصاح فيهم: إذهبوا إلى الجحيمْ
لن تسلبوا أرضي يا سُلالة الكلابْ!!.

وتظـل الوحدة الأمل والرجاء عند كل عربي، وهذا لا ينعقد ولا يتحقق إلاّ على أيدي الجـيل القادم في المستقبل الواعد، الجيل الذي عليه الاعتماد لإنجاز مهمة الوحدة بين الأقطار العـربية المجـزأة وبين القلوب العربية التي تهفـو لأن يحب بعضها بعضاً لذلك يطلب نزار قبانـي مـن الجيل الغاضب الجيل المنتج، لما يصبوا إليه العرب.

هكذا نرى أن الوحدة مطلب جماهيري مـن محـيط العـرب إلـى الخليج العربي لأن الـوحدة قـوة وانتصار ومستقبل، لذلك عمل الشعراء والأدباء منذ بداية عصر النهضة إلى الدعـوة للوحدة العربية المنشودة، ويدخل في هـذا النطاق الشعراء المهجريّون الذين عانوا ألـم الفـرقة وعـذاب الغـربة حيث عيونهم شاخـصة إلى كل ما هو عربي، أما نزار قباني الـذي عانـى من ألم التجزئة العربية والجهل والفقـر والمـرض، قـد آل على نفسه إلا أن يكـون صوت الجماهير العربية في الدعوة إلى الوحدة بين الأقطار المجزأة، والآمال المبعثرة التي لا تخدم إلا أعداء هذه الأمة الواحدة.



حاول كثير ممن تكلف الكتابة في النقد أن يثبت أن هناك فناً يجب أن يدعى فن النقد. فبذلوا في ذلك كثيراً من الوقت في البحث والتنقيب عما يظفرهم بضالتهم وينتهي بهم إلى طلبتهم فعادوا وملء أيديهم الإخفاق وأردانهم الخيبة: غير أنهم أبوا إلاّ أن يضعوا في ذلك تآليف أرادوا بها حمل الناس على الاعتقاد بأنها كتب في النقد وليست هي في الواقع إلاّ أبحاثاً في شؤون مختلفة شاؤوا أن يطلقوا عليها فن النقد. على أن من تتبع ما قاله العرب - ونحن إنما نتكلم عن النقد في لغة العرب - في لفظة النقد والانتقاد يعلم أن ليس من ضرورة لأن يكون بين العلوم ومستحدث الفنون علم أو فن يسمى فن النقد أو علمه إذ أن هذه اللفظة قلما تستعمل غير مضافة إلى لفظة أخرى كقولك: نقد الشعر ونقد الأدب ونقد اللغة وغير ذلك مما قد يعرض لمعانيه الخطأ فيه والنقض ببعض شؤونه والتقصير في جهة من جهاته فيبدو لبعض الناس خلله دون بعض ويتجلى مكان الضعف فيه لنفر دون آخرين، فليس يستطيع أن يتعرض لنقد شيء أياً كان إلاّ ماهر فيه حاذق بتفاصيله وجمله.

* * *

وقد كان للأمة العربية في النقد عناية كبيرة وحفاوة واهتمام لا تزيد عليها فيه أمة من الأمم. يدلنا على ذلك كثرة ما استحدثته لهذا المعنى من الألفاظ المرادفة لكلمة النقد. وإن كان لقائل أن يقول أن كثرة الكلمات الدالة

علـى الـنقد في العربية ليست حتماً أن تكون دليلاً على هذه العناية وتلك الحفاوة لأن العرب مـن خصائص لغتهم كثرة المترادف فقد وقفوا للمعنى الواحد من الأفعال والأسماء والحروف ما تضيق عن بعضه أشد اللغات سعة وأكثرها عـدد كلم، غير أن كثرة المترادف لمعنى النقد ليست مستندنا وحده بل هناك أدلة جمة تدل دلالـة نيرة على أن النقد كان فطرياً في العرب لمـا جبلوا عليه من قوة الطباع وسلامة الفكر وتوقد الخواطر وشدة الإلهام يعلم هذا ويروح مـنه على أشد من اليقين من كثر اختلافه إلى كـتب أدب العـرب وطال عهده بممارستها مع نفـوذ بـصر وصـفاء بصيرة فأصبح وليس بالمـتعذر عليه أن يجيء من الأدلة والبراهين بمـا لا يـسع مكابراً أو منكراً أن يقوم له أو يثـبت أمامـه خلافاً لما اعتمده وقلد به بعض المتكلمـين في الأدب ولا غرو بذلك لأن السبب فيه أنهم حديثو عهد بالأدب وإن للأدب العربي آفاقـاً لـم يـتح لهـم الجولان في عامتها أو الانـتهاء إلـى غايتها والإشراف عليها جملة، ولـيس مـن شك بأن النقد في أي فن أو علم إنمـا هـو نتـيجة الثقافة فيه وإن من ينصب نفسه لانتقاد شيء تحتم عليه أن يكون ملماً به إلمام الإحاطة بكل منحى من مناحيه متغلغلاً كل الـتغلغل في مدابه وخوافيه فلا ينتقد في اللغة مثلاً إلاَّ من قتلها خبرة وعلماً وقتلته ممارسة وعمراً ولا يأخذ على الشعراء شيئاً في شعرهم إلاَّ مـن جـرى الشعر في نفوسهم مجرى الدم فـي سمام أعراقهم فحذقوا من خفاياه ومداق شـؤونه مـا يحـول بينهم وبين العسف فيه والجور والسفه على ذويه لما توفر عندهم من عـزة العلم وشمم المعرفة فيترفعون عن منح الألقـاب هـبات والنعوت فارغة أو ملأى على مـن لا يستحق إلاَّ من يسل لسان شيطانه من قفـاه كيلا يجود عليه بما يبدو قرحة في وجه الشعر وخراجة في جسم الأدب.

قال ابن سلام الجمحي في مقدمة كتابه (طبقات الشعراء):

"وللـشعر صناعة وثقافة يعرفها أهله كسائر أصناف العلم والصناعات منها ما تثقفه العين ومنها ما تثقفه الأذن ومنها ما تثقفه اليد ومـنها مـا يـثقفه اللـسان، من ذلك اللؤلؤ والـياقوت لا يعـرف بـصفة ولا وزن دون المعاينة ممن يبصره ومن ذلك الجهبذة بالدينار والـدرهم لا تعرف جودتهما بلون ولا مس ولا طـراز ولا حـس ولا صفة ويعرفه الناقد عند المعايـنة فيعـرفه بهجرجها (١) وزائفها (٢) وسـتوقها (٣) ومفـرغها (٤) ومـنه البصر بغـريب النخل والبصر بأنواع المتاع وضروبه واخـتلاف بـلاده وتشابه لونه ومسه وذرعه حتـى يـضاف كـل صنف منها إلى بلده الذي خـرج مـنه وكـذلك البصر بالرقيق فتوصف الجاريـة فـيقال، ناصعة اللون، جيدة الشطب، نقية الثغر، حسنة العين والأنف، جيدة النهود، ظـريفة اللـسان، واردة الـشعر، فتكون بهذه الصفة بمائة دينار وبمئتي دينار وتكون بأخرى بألـف دينار وأكثر لا يجد واصفها مزيداً على هذه الصفة".

وقد أبى الله لهذه العامة إلا أن يكون لها سبق إلى كثير من استعمال ألفاظ لا تتعدى فيها ما أرادته العرب من معان كثيرا ما تنحرف عنها الخلاصة جهلاً أو ذهولاً فلا تأبه - أي الخاصة - ولا تفطن لجهلها أو ذهولها حتى يصدع بخطاها صادع أو يشهر أمهرا مشهر وذلك كثير بحيث يتعذر علينا الاتيان عليه إلاّ في كلمة ضخمة عسانا نرسلها متسلسلة في هذه المجلة حتى إذا تمت أخرجت للناس كتاباً قد يكون عونا كبيرا لكل كاتب أو شاعر من أبناء الضاد.

فمن هذه الألفاظ التي يستعملها العامة بالمعنى المقصود عند العرب ويجاريهم بذلك بعض الخاصة ممن اشتد بصره في اللغة كلمة النقد فهم لا يقولون نقد فلان فلاناً إلاّ إذا أخذ عليه نقصاً أو عاب خلة أو اهتدى إلى موطن سُبة.

وهاك ما دونه أرباب المعاجم عن أفواه العرب في كلمة النقد قالوا: النقد والتنقاد تمييز الدراهم وإخراج الزيف منها. وروى سيبويه لأحدهم يصف ناقة:

تنفي يداها الحصى في كل جاهرة

نفي الدراهم تنقاد الصياريف

وقالوا: ناقدت الرجل مناقدة إذا ناقشته في الأمر، ونقد الصبي الجوزة أن يضربها بإصبعه ونقد الرجل أرنبة أنفه ضربها وفي حديث أبي الدرداء أنه قال إن نقدت الناس نقدوك وإن تركتهم تركوك. ويقال نقد بصره إلى الشيء ونقد بعينه الشيء إذا خالسه والنقد مخالسة النظر بحيث لا يفطن له ومازال بصره ينقد إلى ذلك نقوداً شبّه بنظر الناقد إلى ما ينقده ومن ذلك النقد بفتحتين لنوع من الغنم قصير الأرجل ولسفلة الناس، إلى غير ذلك مما يجيء بمزيد هذه المادة.

فأنت ترى في كل ما تقدم أن كلمة النقد لم تخرج عن العيب والإنكار إلاّ إلى ما يشبهه ويقاربه من إرادة الشر يبدو ذلك بينا ظاهراً لكل من رزق نصيبا من حسن النظر في هذه اللغة.

هذا وإن المهرة ممن ألفوا في خصائص اللغة أدركوا هذا الذي ندعيه بلفظة النقد فلم يخلطوا المترادف منها بغيرد من ألفاظ الاختبار والبحث كما فعل إبراهيم اليازجي في كتابه (نجعة الرائد) فإنه فضلا عن مزجه باب النقد بالاختبار فقد أثبت كثيرا مما أورده في باب النقد في الذم، وعذره في هذا شدة التقارب بين البابين حتى أنه لو جمع بينهما لكان أدنى إلى الصواب من عمله الأول.

وهذا عبد الرحمن الهمذاني يقول في كتابه (الألفاظ الكتابية) في باب المناقدة:

"تقصيت على الرجل وحاصصته على الأمر محاصة وناقشته وصارفته وناقدته وحاسبته".

قال بعض الأدباء: محاسبة الصديق على الأمور دفاءة وترك الحقوق للضنين غباوة إلى آخر ما يرى أكثرد من كتب الخصائص وجملته في كتابنا (الجحيم) لاحتفالنا بالنقد هناك توسعا وإشباعا

وسداً لنهم محبي الاطلاع على ما للعرب في النقد.

وحري بنا وقد نقلنا شيئا من مادة النقد وما يريد منها العرب في كلامهم أن نورد ما يرادفها وترادفه على تقارب في المعنى واختلاف قليل في مواطن الاستعمال وفرق لا يأبه إليه إلاّ الكيس اللبق من أهل اللغة والكتاب والشعراء، غير ما ذكر عن عبد الرحمن الهمذاني:

قال الزمخشري في أساس البلاغة: ومن المجاز نقرته وناقرته، عبته وغبته ورميته بناقرة ونواقر وبينهما مناقرة أي مراجعة كلام ونقرن عن الخبر ونقَرت عنه بحثت وعبت وسهم ناقر أي صائب. قال الشاعر:

رميت بالنواقر الصياب

أعداءكم فنالهم ذنابي

ومثل هذه رذل الشيء جعله رذيلاً ضد انتقاد وأرذله مثله. تقول: أرذل الصيرفي من دراهمي كذا وردّه ونفاه، وأرذل فلان من غنمي وأصحابي كذا عدداً عابه ورده ونفاه ولم يرضه.

* * *

وعلى هذا فلا بد لنا من القول بأن اللغات والألفاظ كالأمم والأفراد تعلو في زمن وتنحط في غيرها وترتقي في اقليم وتهبط في آخر وتحالفها السعود في قطر وتناكره في سواه ولم يكن عصر من اعصار اللغة يخلو من أن تكون السيادة فيه لكوكبة من الألفاظ تلح على استعمالها الخاصة ويتهافت عليها السواد مجاراة وتقليدا. ومن هذه الألفاظ التي كان لها سيادة وذيوع، وترادف كلمة النقد على فرق قليل ولم تصل إليه أيدي أصحاب كتب الخصائص: (التتبع).

قال في (اللسان): التتبع أن تتبع في مهلة شيئا بعد شيء وفلان يتتبع مساوئ فلان وأثره ويتتبع مداق أموره.

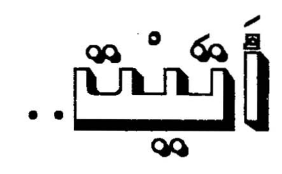
وفي كتاب (البخلاء) للجاحظ في حديث سهل بن هارون رداً على أناس عابوا عليه ولاً له: وقد تتبعتموني في قولي كذا أي أخذتم وعبتم ولست أشك في أن لفظة التتبع هذه كان لها من الحول والسلطان والذيوع على الألسنة، صدر الدولة العباسية حتى عجزها، ما لا يقل عن نفوذ كلمة النقد اليوم.

وإن في لفظة التتبع مع جدتها وحداثة عهدنا بها من الجمال ما تطيق معها مزاحمة كلمة النقد بعد أن الحفنا عليها ذلك الإلحاف الذي أغرى العامة فلهجوا بها حتى أذهبوا من جدتها وانضبوا من ماء بهائها. على أن من أعين بالصبر وأمد بسعة الجلد على طول التنقيب يجد في ثنايا اللغة ما يجري مجرى كلمة النقد والتتبع الشيء الكثير مما لم يعثر عليه مؤلفو الخصائص في اللغة.

---

(١) البهرج: الدرهم المضروب في غير دار الأمير.
(٢) الزائف: الدرهم الرديء المرودو لغش فيه. جمعه (زيف) و (زيوف).
(٣) الستوق: على وزن تنور وقدوس: درهم زيف بهرج ملبس بالفضة وقيل هو أردأ من البهرج.
(٤) المفرغ: المصبوب في قالب ليس بمضروب ضربا.



أنت..

شعر : مدحة عكاش

حلالٌ لعينيكِ ما تسرِقُ
ونُعمى لقلبيَ ما يعشَقُ

أيُوقِظُني في هواكِ الفُتُونُ
وهمسُ الجفونِ وما تنطقُ

لقد كنتُ قبلَ لقاكِ الحبيبِ
وقبلَ الجمالِ ما يسرقُ

أعيشُ بقلبٍ طواهُ الزمانُ
فلا يستفيقُ ولا يخفقُ

فمِنْ أينَ أقبلتِ؟ لا موعدٌ
أيكذِبُ ظنّيَ أو يصدُقُ؟







أأَنْتِ التي كنتُ في ذكرِها
أُحِسُّ شذى جنَّةٍ يعبقُ

وكنتُ أعيشُ على موعدٍ
سيذبُلُ عمري ولا يورِقُ

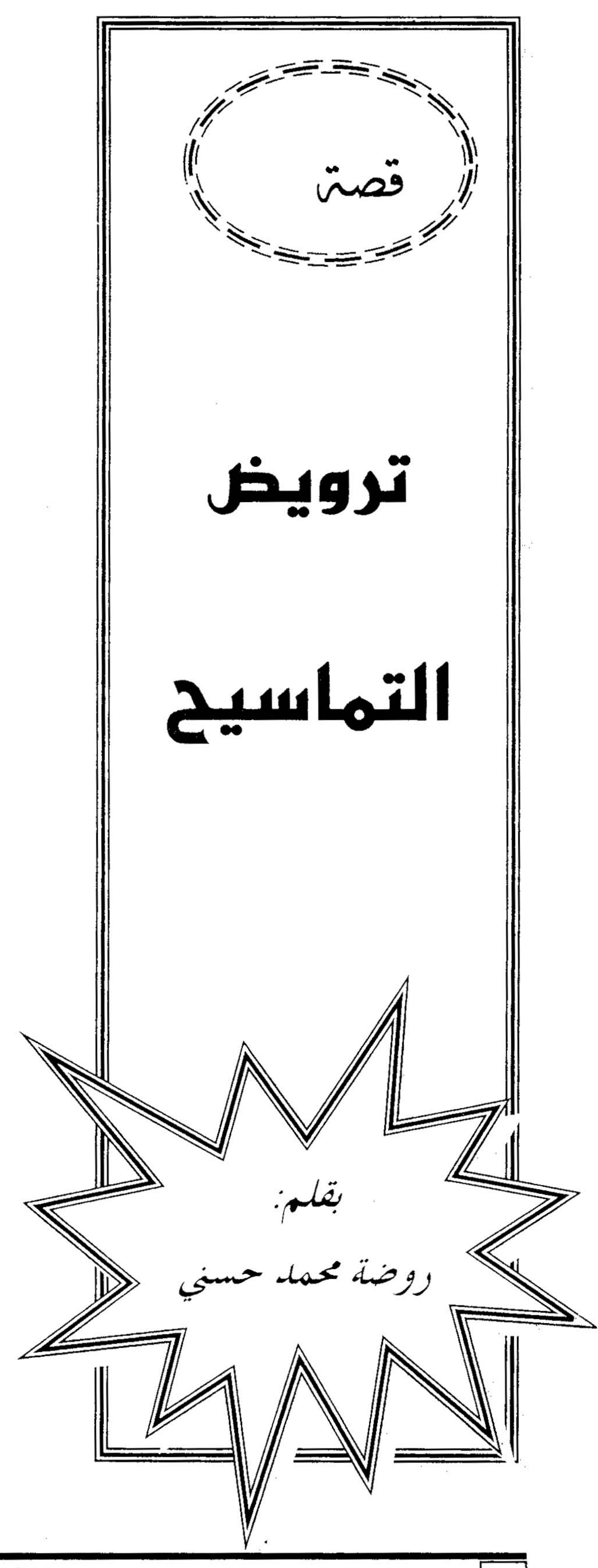
أتيْتِ فيا مرحباً بالجَمالِ
وأهلاً بأشعارِنا تدفقُ

أحاديثُنا غمغماتُ الربيعِ
يحنُّ لها البرعمُ المطبقُ

يكحِّلُ جفني سناكِ الحبيبُ
ويُسعِدُ قلبي الهوى الشيِّقُ

وتسرقُ عينيَ حُسْنَ السَّنى
حَلالٌ لعينيَ ما تسرِقُ



أعترف أنّي زججْت رأسي في قمقمٍ لا يتّسعُ لإبهامِ كفّي.

بدوْتُ أمامَ مرآة نفسي ساذجاً.. بليداً، وأنا أملأُ جوفَ اللّيل بقهقهات هستيرية لم أتوقّفْ حتى شعرْتُ بتصلّب في الفكّين. فالوقت بدأ يُداهمُني.

لا تظنّوا بي السوء.. فلمْ أكن مخمورا ولا أبلهَ.. بل مقاتلاً جسورا، يمضي إلى معركة مصيرية لكنْ - بدون سلاح - كنملة تحت قدم فيل، أثار ذلك ضحكي الممزوج بسخرية قاتمة، فتجربةُ البروفسور ماركو كانتْ تقتضي إمكانية التعايش مع التماسيح مدةَ زمنية لا تتجاوزُ الشّهرَ الواحدَ، في جوٍّ من التّسامح والألفة منقطعِ النظيرِ، بحيث لا أَقْتُلُ ولا أُقْتَلُ. لذا وحفاظاً على حياة التماسيح، لم أُزوّدْ بأيّ سلاح خشية أنْ تراودني نفسي فأقوم بأيّ عمل إجراميٍّ ضدّها.

ومن شروط التجربة أيضاً أن أرفع الراية السّوداء إنْ أردْتُ الاستسلام، والبيضاءَ إذا تعرّضْتُ لأيِّ اعتداء، أمّا الحمراءُ فيرفعُها البروفسور عند انتهاء المدّة الزمنية المحدّدة. أدركْتُ حينئذ أنّ الموازين اختلّتْ، والمفاهيم الأساسية تغيَّرتْ، بتبدلِ ألوانِ الرايات عن الأعراف السائدة لها.

لكنّ هذا الأمرَ لمْ يجعلْني أنأى عن قراري، فالانكسارُ الذي غلّفني طيلة حياتي علّمني أن أحرق كلَّ شيءٍ ورائي دون تفكير بالنصف المليء من الكأس.

عندَ بوابة العبور إلى مستنقع التماسيح أُخضعْتُ لتفتيش كامل ودقيق. جرّدتْ خلالهُ حتى من صورة حبيبتي.. لطالما أشعلت الظروفُ في دربينا الحرائق، دسْتُ وإياها - أيْ حبيبتي - حفاةً فوق جمر استعار الطّوائف، سكبْتُ ظلّي في هسيس الوقت،

لنصلَ إلى زمنٍ يؤرِّخنا بين درفتيْه ولكنْ..!! عددْتُ أصابعي العشرةَ ووهبْتُها ما بينَ العشرةِ والعشرة، أحصيْتُ الرمشَ والنبضَ وملَّكْتُها ما بينهُمَا.. لكنْ!! كتبَتْني في مقلةِ حُلْمِهَا، فارساً كنْتُ لهَا.. كبا حصاني.. واندحرَ حلمُها.. حُلُمي، حين غدرَتْ بي.. بها رصاصةُ اختلافِ الطّوائف على أبوابِ الحلم.

جرّدوني من صورتها، فرأيُ البروفسور والرَّأيُ كما يرتئيه أنّ القلب مجرَّدُ مضخة تضخُ الدّماء إلى الشرايين لنبقى على قيد الحياة، والحياةُ مجرّدُ حيوانٍ رخويٍّ عليَّ أنْ أدهسهُ منتعلا حتى لا يطالني سمُّه.

هذا آخرُ ما سمعْته منْهُ. أما آخرُ شيء وقع عليه بصري عقارب الساعة عندَ السادسة تماماً قبلَ انتزاعهَا من معصمي.

إذاً حضرةَ الإعلاميين.. والمصوّرينَ.. والصحفيين.. والكتّابَ.. وأنتم.. هيئوا أنفسكُمْ لترصُدوا تجربةَ البروفسور فقدْ بدأَتْ.

أطلقتُ سهم بصري، في كلِّ الاتجاهات لأمسح بعينيْ الرّؤى المكانَ المحيط بي، كانتْ الأشجارُ الصغيرةُ والعملاقةُ منتشرةً بشكل كثيف أخّاذ تدفعُها رغبةٌ ملحّةٌ في النّمو، فتصعدُ شاهقةً نحوَ الضوء، الحيواناتُ هنا تزحفُ وتجري وتتسلَقُ، ترتادُ النهر الذي من الصّعب رؤيتُهُ بوضوح، فالأشجارُ تنحني فوقَهُ كالأقواس، ويبدو كما لو كانَ يجري في أنفاقٍ خضراءَ ظليلة.. شيءٌ وحيدٌ يعكرُ صفوَ النهر.. وجودُ التماسيحِ هناك. تكسّرَ سهمُ بصري عندما وقع عليها.. أغمضْتُهُما بسرعةٍ كي لا يحتلّني الهلعُ من الوهلةِ الأولى.

كانَ عليَّ المرورُ بخطٍّ متعرّجٍ بينَ الأشجارِ وتفرّعات النّهر، للوصول إلى الكهف الذي سأمكثُ فيه لحين انتهاء التجربةِ. مدخلُ الكهف كان هادئاً، لا توجد أيةُ دلائل تنمُّ عن أمرٍ غيرِ عاديٍّ.

بدأتْ أيامي هنا بكثيرٍ من الحذرِ والقلقِ اللذين كانا يصبّان في رأسي، الحياةُ عاديةٌ ورتيبةٌ، بل تبدو وكأنّها رحلةٌ استكشافيةٌ لولا ذاك السياجُ المكهربُ المحاصرُ فيه - والتماسيحُ - في منطقة صغيرة نسبيا لذاك المكان الممتدّ إلى اللامحدود..

على الرغم منْ هذا الهدوء كنت دائما أنهضُ عند إطلالة الفجر أتحسّسُ جسدي.. أمسكُ بعضي ببعضي.. أطلقُ زفرةً طويلة.. لتُعْلمَني أنّي مازلْتُ على قيد الحياة. عدسات المصورين تلاحقُ حركاتي وحديثي معكم من بداية الفجر.. إلى سطوع فجرٍ آخر.. باستثناء أوقات النومِ فتلك اللحظات كان يرصدُها البروفسورُ شخصياً.

الليلُ والنهارُ هنا يتعقبان ببطء، أتناولُ طعامي، أفتحُ وجبةً إثرَ أخرى من الطعام المتساقط من المروحية.. أنْحتُ بعض الأدوات لتعينني في معيشتي، وأرسمُ على جدار الكهف وجه الحرية.

الخوفُ كان يرتديني أكثر فأكثرَ، بعْدَ أنْ سجَلتْ هذه التجربةُ أوّل اعتداء لصغار التماسيح التي اقتحمتْ مسكني ليلةَ أمس.. صرخْتُ مذعوراً ووقعُ الحدث يشلُّ حركتي. يعقدُ لساني، قذفْتُ حذائي في وجهها ولُذْتُ بالفرار بعيداً منتعلا أسفل قدمي. بعدَ هذا الاعتداء المباغت لم أعدْ آمنَ على نفسي داخلَ الكهف، فشرعْتُ أسدُّ مدخلَهُ بصخور دأبْتُ على جمعها، لم أُبقِ إلا فجوةً صغيرةً بحيْثُ إنْ دخلْتُ الكهفَ أستطيعُ سدَّها من الداخل بصخرة ادّخرتُها لهذه الحاجة. بدا ما فعلتُهُ منطقياً بالنسبة لي وربّما لكُمْ، لكن البروفسور له

وجهةَ نظرٍ أخرى أفهمَني إيّاها بأنْ قطع عني إمدادات الطعام.

أدركتُ حينئذٍ أنّ عليَّ البحث عن طعامي بنفسي، أخذْتُ أجوبُ المكان بحذرٍ شديد، أحملُ بيدي عصاً غليظةً أضربُ بها تفرُّعاتِ الأشجار، والأوراقَ المتساقطةَ أرضاً، قطفْتُ بعضَ الثمارِ ثم مكثْتُ أتناولُها وأرقبُ التماسيحَ وتراقبُني عن بعد كافٍ لأكونَ محمياً منها ومحميةً مني، ربما عليَّ أن أدرسَ طباعها، وأعتادَ شكلها... وافتراسها.. ومنظر الدّماء الطافية على وجه الماء.. وأصُمَّ آذاني عن نحيب الظبية على ريمها، و بكاء بعض الحيوانات على قتل قُرنائها.. لآمن شرّها.

مضتْ الآنَ عدّةُ ليالٍ ليس بإمكاني إحصاؤها، بدأ كلُ شيء يؤرقني.. مخالبُ الليلِ المغروزةُ في نفسي، دفاترُ ذاكرتي التي ملأتُها حتى جفّت الدواةُ، غولُ الوحدة الذي بدأ ينهشُ من صبري، يأكلُ معي من طبقي، ويحتسي آخرَ الليلِ فنجاني الوحيدَ، فالوقتُ هنا سلحفاةٌ يجثمُ فوق قوقعتها طائرٌ ضخمٌ يعوقُ حركتَها. كم تمنيْتُ سابقاً أنْ أعيشَ وحيداً بعيداً عن كلِ هزائمي.. المقيتة..

لكنْ ما حسبْتُ أنَّ الوحدةَ التي اعتقدْتُ أنّها طفلي المدلّلُ، ستتحولُ إلى غولٍ بشعٍ ومخيفٍ إلى هذا الحدِّ.

حتى التماسيحُ بدأت تثيرُ غضبي وجنوني باعتداءاتها المتكررة، كانتْ تهاجمُني في أيِّ وقت، وأنا أبدو كنعجةٍ هاربةٍ من ذئاب الليل.. تبعثرُ طعامي ولا تأكلُهُ، تولّدُ في نفسي الرعبَ. كنْتُ أقفزُ من مكاني، أرمي اللقمةَ من فمي عندما أسمعُ حركاتِها الافتراسيةَ أو دنوَّها مني.. تكرّرَتْ حالاتُ الهلعِ لديّ وأنا الأعزلُ. كانَ هجومُها المتواصلُ يذكرُني بمقولةِ المفكرِ الفرنسيِّ (سيدني لو): "إنّ سلوكَ الغربِ في الشّرقِ الأوسطِ هو سلوكُ رجالِ العصاباتِ وقطّاعِ الطرقِ الذين يغيرُون على مزارعين سذّجٍ عزّلٍ من السّلاح".

فتعاودُني مجدداً حالةُ الضّحك الهستيرية، يعودُ إليَّ الصدى مكرراً كلامي الممزوجَ وضحكي.. ما الذي أتى بك إلى هنا أيُّها الأحمق؟.. أضربُ الأرضَ بيديَّ.. فيتناثرُ الغبارُ، يُعمي بصري، وتصرخُ في وجهي الحقيقةُ: كفى، كنتَ مرغماً يا هذا..!! ماذا قدّمَ لكَ فكرُكَ.. غربتُكَ، لا شيء سوى شهادات تملأُ جدرانَ المنزلِ.. و.... صمتتْ الحقيقةُ، بل أخرسْتُها. كانَ حلمي أن أسافر إلى الغرب، فهناك في الغرب – حسب رأي الشرقيين – العلومُ تمسكُ بمهمازِ الحضارة. أمّا نحنُ فالحضارةُ تُمسكُ بمهمازِ علومنا، مضتْ سنواتُ عمري المرهونةُ للشهادات.. والابتكارات.. والعلوم. وشوقي لأمّي وبلدي، دونَ أن أتقنَ إجراءَ حساباتي.

في الغرب لا يُسمَحُ لأمثالي بالعودة إلى أوطانِهمْ قبلَ أن يحوّلوهُمْ إلى مجانينَ.. أو جثث هامدة.. فالعلومُ علومُهُمْ.. وكل الابتكارات – باعتقادهمْ – مُلْكٌ لهم.

جوّفُوا رأسي ليسكبُوا في التجويف عقلاً مبرمجاً وفقَ متطلّباتِهمْ واضعين على جوازِ عودتي يمنعُ من المغادرة. إذاً لم يبقَ أمامي إلا تجربةُ البروفسور ماركو والانصياعُ إلى شروطه إنْ أردْتُ العودةَ إلى وطني سالماً..!

قذفْتُ أفكاري هذه بعيدا، فالفجرُ أطلّ، وعليَّ أن أبدأ بالاصطياد، أشعلُ النار كالبدائيين الأوائلِ، ثم أتناولُ طعامي.. كان هذا الأمرُ يثيرُ غضبَ البروفسورِ والتماسيح، في رأي التماسيحِ أني اعتديْتُ على حصتِها من الغذاء، أما البروفسور فبقي صامتاً مستهجنا.. فهو

يدركُ أنّهُ مَنْ أوقف إمدادات الطعام لي.. ويعلمُ أيضاً أنّهُ الآن أصبح بحوزتي نوعٌ من أنواعِ الأسلحة..

حتى الآنَ يبدو التعايُش مع التماسيحِ ممكناً لولا عدةُ أسباب:

بالأمس يا حضرةَ البروفسور اقتحمَت التماسيحُ الجحرَ الماكثُ فيه، جابَتْ المكان كلَّهُ بديناميكيـة خارقة، خرَّبَتْ.. حطَّمتْ.. دمَّرتْ.. انـتهكتْ.. استباحَتْ كل شيء... اقتلعَتْ قلبي من جذوره، مسجّلةً أبشعَ المفاهيم عمّا يسمّى بحقوق الإنسان. ثم استقرَّتْ عندَ فتحة الكهف لتـضعَ الأنثـى بيوضها هناك.. ألم تجدْ مكاناً غير مقرّي يا حضرة البروفسور..!؟

تماسـيحُك اختــرقتْ كـلَّ القوانــين، لقناعــتها أنَّــهُ لا تـوجدُ عدسةٌ واحدةٌ جريئةٌ قادرةٌ على التقاط أيَّةِ صورةٍ لها إلا بإذنٍ خطيٍّ منكَ تحديداً..

لأجـلِ هذا، ولأنَّ المدَّةَ الزمنية انتهتْ ولـم تُرفعْ حتى الآن الرايةُ الحمراءُ.. سأُنْهي أنا هذه التجربةَ..

جـدارُ ذاكَ الكهـفِ يـشهدُ بانـتهاءِ المـدة.. فصوِّرُوا تعدادَ الخطوط.. أو عذراً لن تـستطيعُوا ذلـك فأنثـى التمساحِ رابضةٌ عندَ مدخله.

إذاً.. لــنْ أحتاج الانتظار لتصوِّروا أو تـتداولوا.. سـأرفعُ الآن الـرايتين، السوداء والبيضاء معاً..

أيقنْتُ وأنا أرفعُ الرايتين معاً أنَّ اللونَ تحـولَ رماديا، والرماديُّ كانَ خارجَ الاتفاق.. إذاً.. الآنَ أسـتطيعُ حـلَّ رموزِ المعضلة التي وضَـعني فـيها ذاكَ الخـسيسُ النَّـتنُ. أنا لا أسـتطيعُ حتى الهرب، فالسياجُ المكهربُ يخدِّرُ تفكيري..

بـدأت التعايش مع الأمر بعين معلقة فــي الأفـقِ علَّ الرايةَ الحمراء ترفعُ.. والعينُ الأخـرى ترصـدُ السماءَ والأرضَ باحثةً عن الطعــامِ الذي بدا يتضاءلُ رويداً رويداً في هذه البقعة المحدودة.

لــم يـبقَ إلاّ القلــيلُ.. القليلُ وبعدها سـأُرْغَمُ علــى أكـلِ أوراقِ الشجر، أو صغار التماسـيح، فإنْ فعلْتُ الثانيةَ خرقتُ القوانين، وإن فعلْـتُ الأولــى لن تقبلَ التماسيحُ بتعديل الاتفاقية وأكلِ لحاءِ الشجر.

"إن مــبدأ أهميسا - أيَ اللا تعاون - لــيسَ حالــةً سلبيةً لعدمِ الإيذاء، بل إنّهُ حالةٌ إيجابــيةٌ للمحبّة وفعل الخير حتى مع الأشرار. فــإنَّ المحبة وهي الإيجابيةُ في مبدأ المقاومة الـسلبية، تــتطلّبُ منك أن تقاوم المخطئَ بأنْ تفـصِمَ عرا ما بينك وبينه، حتى ولو أدّى ذلك إلى إغضابه أو إيذائه جسمانيا".

أنــا لا أذكّــرُكُمْ الآنَ بمقـولة غاندي لأسـتجرَّ مـنكم مبرراً لاعتداءاتي التي ستبدأ الآن، فكـلُّ ما سأفعلُهُ هو ردٌ على ما آلتْ إليه حالتي دونَ أن يكترث بذلك أحدٌ.

لحيتي طالَتْ كثيراً، وشعْري بدا أشعث مغبــراً، وحجرتــيَ الحدقتين تدوران في رحى العينــينِ دونَ هــدف.. الأصــدافُ بدأتْ تغزْو جلــدي المــتعفن، فمنذُ زمنٍ لم أستطعْ لمس الماء إلا للشرب خُلسةً من النهر.

تجــرَدْتُ مــرغماً مــن إنسانيّتي، بل جرّدُونــي مــنها.. وأدركْتُ أخيراً أن - الحياة حيوانٌ رخويٌّ عليَّ أن أدهسهُ - .

انتزعْتُ ثيابي، لمْ أبقِ حتى على قطعة صــغيرة تــسترُ عورتي، الليلُ الآن والوحدةُ، ذئــابٌ سَرقَتْ قميصي لتسلمهُ للريح والضباب، والتماسيحُ وحوشٌ تنتهكُ كلَّ الأنظمة، تأكل ولا تــشبعُ، تبــتلعُ فريــستَها المقيدةَ بالأنظمة..

والبـروتوكولات.. والاسـتنكارات الـصماء البكماء، تلتهمُها أمامَ العدسات.. والإعلاميين.. وضمائرُنا الميتةُ.. تنقلُها على كلِّ الشاشاتِ العملاقـة، والعالمُ يضعُ في كفه جهازَ التحكمِ لينتقلَ إلى محطةٍ ترفيهيةٍ أكثر حضارةً وأرقى ديمقراطيةً.

صوِّرُوا إذاً.. توحّش الإنسان، فلمْ تعدْ تتـراءى لـي إلاّ الطحالبُ والأشنياتُ القذرةُ، الـرخويات بـدأتْ تطـالُ حتـى الضمير في وجدانـي، كـنتُ أتحولُ إلى وحش أكثرَ فأكثر كلّما حاصرَني الموتُ، أهاجمُ أعشاشَ الطيور، البـيوضَ والـصغارَ، كأفعـى كنتُ ألتوي بين إنـسانيّتي والـبقاء، الآن لا مكانَ للرحمة أو الـشفقة، سـحقْتُ داخلي الزهرةَ التي أهديْتُها لحبيبتي، وقتلتُ في ذاتي طائرَ الحبِّ الذي غرّدَ لهـا يوماً وشربتُ من دمائه، ثم انتزعْتُ قلبي مـن صدري، وضعْتُهُ بين فكيَّ وبدأتُ أضغطُ.. أضـغطُ.. حتى مات فيَّ أدنى إحساس، عندَها استطعْتُ دفنَ حبيبتي في قرارةِ نفسي في نعشٍ لا يحمـلُ اسمَها.. ولا تاريخَها.. ولا ميلادَها، وسـلَّمْتُ للريحِ أوراق نعْوتَها.. المقبرةُ كانتْ أنـا.. صـوِّرُوا صـوِّرُوا إذاً كـيفَ تـروِّضُ التماسيحُ.

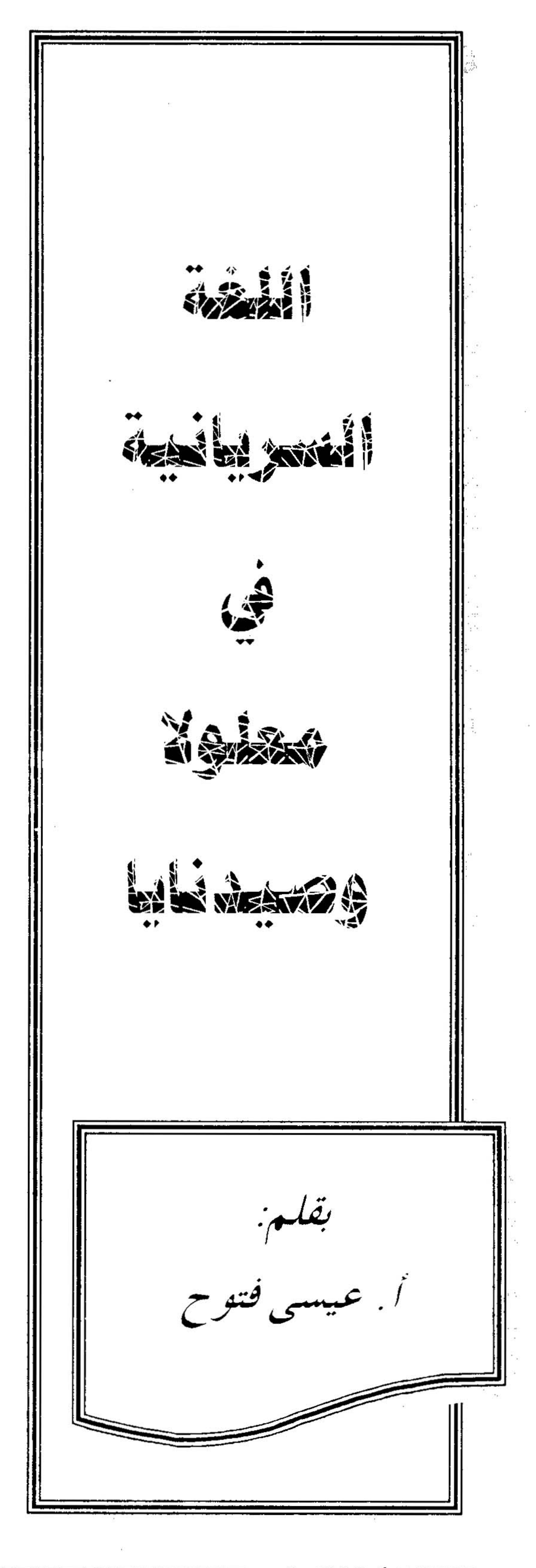
شـحذْتُ سلاحي الذي صنعْتُهُ بنفسي مـن الحجـارةِ وأغصانِ النباتات، اللَّظى كانَ يتطايـرُ منْ عينيَّ.. والدماءُ ترتسمُ صوراً في ذاكرتـي، تصطكُ أسناني، يغلي دمي.. وضعْتُ عـصبةً علـى رأسـي وخـرجْتُ لقتل صغار التماسـيح، كـي لا تكبُر وتفتكَ بضحيّتها دونَ أدنى شعورٍ بالألم. أسلخُها لينتعلَ العالمُ أحذيةً تصنعُ من جلدها.

بـدأْتُ بالقتل.. لكنَّ صوتاً استوقفني، اعـتقدْتُ في البدايةِ أنّه آتٍ من المنظمات التي تـسعى لحمايةِ الحيواناتِ المسالمةِ الرفقِ بها، ومنظماتِ حقوقِ التماسيحِ، أو ربَّما المنظماتِ المكافحةِ للإرهاب، لذلكَ لمْ أكترثْ للأمر.. لكنَّهُ كـانَ صوتَ امرأة.. تستغيثُ.. وتستغيثُ، وأنا أتابعُ بقوةٍ أكثرَ. الصوتُ كانَ رصاصةً اخترقتْ وجدانـي، ثقبتْهُ ومضتْ، فذاكَ هو صوت أمي، أحـضرَهَا إلـى هنا ماركو لتكونَ الشعرةَ التي تقصمُ ظهري. لكنّي لن أتوقَّفَ - فالقلبُ مجرّدُ مـضخّةٍ تضخُّ الدماء إلى الشرايينِ لنبقى على قيدِ الحياةِ، والحياةُ.. -..

هـل تدينُونَنـي لأنّـي كنْتُ أنا وأمي كبـشي فـداء؟!.. إنـي أسـتـشفُّ الإدانةَ من وجـوهكُم.. لكـنْ لـنْ يراودنـي أيُّ إحساسٍ بالخـزْيِ والعـار، ولنْ أُسقط نفسي في حمأةِ الـضمير.. ولـنْ آسى لعمرٍ توارى في جوفِ التمـساح.. فعلام ينهمرُ الزمانُ؟ ويصبُّ العالمُ جحـيمهُ فـوقَ رأسي؟ تَعُبُّ الأرضُ الحقيقةَ، ويـصدحُ البروفـسورُ وقاداته بمبررات واهيةٍ لإطـباقِ الحـصارِ على الأرضِ الواقعةِ خلفَ الـسياجِ المكهـرب، رافعـينَ الرايةَ الحمراءَ المطـرزَ علـيها شـعارٌ.. (مـن أجل مكافحة الإرهـاب المنظَّم) وبرفعِ تلكَ الرايةِ الحمراء - حسبَ الاتفاق - تكونُ الفترةُ الزمنيةُ المحددةُ لإنهاءِ التجربةِ قدْ انتهتْ الآن...

وانتهى تفكيري بالموافقةِ على اقتراحِ البروفسورِ أو رفضه.. فكلُّ ما ذكرتُهُ لكمْ آنفاً هو تصوُّرٌ لمَ ستؤولُ إليه الأمورُ لو أني قبلْتُ بتجـربةِ البروفسور ماركو.. وأقسمُ إني لستُ بـواهمٍ فـي كلِ تصوّراتي التي حدّثْتُكمْ عنها، فالتجاربُ القديمةُ والتاريخُ والواقعُ، والأحداثُ التي مررْنا بها ونمرُّ بها تؤكدُ تصوُّراتي.

وإنـي أرفض التجارب كلَّها وإن عدّتْ بنعشٍ أحملُ به.. خيرٌ من أن يُحمَل وطني في نعشي، ولن أُبرمَ أيَّ اتفاقٍ من هذا القبيل ما لمْ تُروَّضُ التماسيحُ..



كانت اللغة السريانية لغة سكان سورية قبل الفتح الإسلامي الذي أدخل معه اللغة العربية ونشرها، فتراجعت اللغة السريانية وانكمشت، وهُجرت شيئاً فشيئا في المدن ثم في القرى، إلى أن انقرضت كليا. لكن لا تزال منها بقايا حتى الآن في ثلاث قرى في جبال القلمون هي (بخعة) و (جبعدين) المسلمتان، و (معلولا) المسيحية، فقد ظل أهل هذه القرى الثلاث محتفظين باللغة السريانية إلى جانب اللغة العربية، بسبب ارتفاع قراهم وانعزالها طوال القرون الماضية، وبعدها عن الطرق العامة، ونتج عن هذه العزلة صيانة اللغة السريانية ولا يزال الآباء يعلمونها للأبناء جيلاً بعد جيل.

لقد لفتت هذه اللغة أنظار العلماء والباحثين الأوروبيين، وخاصة المشتغلين منهم باللغات السامية، فقاموا بزيارة معلولا التي تبعد عن دمشق خمسة وخمسين كيلو مترا، وتحاط بالجبال الشاهقة، ودرسوا لغتها. وألفوا كتباً في صرفها ونحوها ومفرداتها ونصوصها، كذلك أوفد المعهد الفرنسي بدمشق سنة ١٩٣٦ أحد أعضائه هو الأستاذ (رايش) فمكث فيها ستة أشهر متواصلة حتى تعلم لغتها، ودرس شؤونها المختلفة، وخرج بمؤلف جمع فيه كل ما يتعلق بجغرافية معلولا، ولغة أهلها، وعاداتهم وتقاليدهم في الأفراح والأتراح.

قال الأستاذ رايش: "إن اللغة السريانية آخذة بالتراجع أمام العربية لأسباب كثيرة، وسوف تنقرض بعد جيل أو جيلين، كما انقرضت من قرى لبنان الشمالي (اهدن وبشرّي وحصرون)، إذ ليس في السريانية

أغانٍ تعبر عن خوالج النفس، وأول كلمة أو أغنية يسمعها الطفل من أمه أو أبيه في معلولا هي عربية، كما أن المدارس لا تعلّم غير العربية، والكنائس لا تقيم طقوسها إلاَّ بالعربية أيضاً، إضافة إلى فقدان الكثير من كتبها ومخطوطاتها السريانية القديمة التي هي دعامة بقاء اللغات".

وقد ذكر المؤرخ حبيب الزيات في كتابه (خزائن الكتب في دمشق وضواحيها): "أن كثيراً من المخطوطات السريانية دينية أو تاريخية أو أدبية كانت محفوظة فعلاً في دير مار لاونديوس في معلولا، ودير السيدة في صيدنايا، فسطا عليها رجال الأكليروس الأرثوذكسي وأحرقوها في الأفران، وأتلفوا قسماً كبيراً منها، وما نجا منها نقل فيما بعد إلى المكتبة الأسقفية في يبرود، وكان هذا الإحراق خسارة لا تعوّض".

وقد اعتمد جرجي زيدان في الجزء الرابع من كتابه (تاريخ آداب اللغة العربية) على رواية الزيات المذكورة فقال: "وفي صيدنايا دير قديم العهد توالت عليه نوائب كثيرة، وكان فيه خزانة كتب تعرف بخزانة (دير الشاغورة) نسبة إلى دير بناه يوستنيان في القرن السادس للميلاد، وهو الآن للأرثوذكس، وقد وصف صاحب خزائن الكتب رحلته إلى ذلك الدير، وما لاقاه من موجبات الأسف لضياع الكتب بالحريق والنهب والإهمال، وذكر ما بقي منها، وكلها كتب دينية، وهكذا يقال في معلولا، فقد كان في مكتبتها كثير من المخطوطات النفيسة في العربية والسريانية لم يبق منها إلاَّ القليل، وبعضها قديم جداً...".

ومهما يكن من أمر، فإن أهل جبال القلمون كانوا يتكلمون السريانية أو يصلّون بها حين تعلموا العربية، فجمعوا بين اللغتين، وبقيت منهم بقية إلى أواخر القرن الثامن عشر.. ولو سلمت مخطوطات دير السيدة ورفوفها، ولم تتلفها يد الغباوة والجهل - كما يقول حبيب الزيات - لأمكننا أن نقف على كثير من نساخ السريانية في صيدنايا، وبينهم بعض رهبان الدير ورؤسائه وأحباره. ومن يطالع كتاباتهم وتعليقاتهم التي ترى اليوم على عدة مصاحف سريانية محفوظة في الخزائن الأوروبية، وكانت موقوفة على كنائس صيدنايا، أو مستعملة فيها، يجد أن كل الأساقفة الذين تتابعوا على صيدنايا حتى أوائل القرن الثامن عشر، كانوا يعرفون السريانية، ويكتبون ويصلون بها.

وحين زار يوسف السمعاني دير صيدنايا في تشرين الأول سنة ١٧١٥، موفدا من قداسة البابا، للبحث عن الكتب المخطوطة في الشرق، أعطاه الرهبان بعض المخطوطات السريانية، ومعظمها في طقسيات الكنيسة الرومية، وكانت مطروحة - كما يقول الزيات - في إحدى زوايا الهيكل طعمة للصراصير والعث!

ويؤكد الزيات في كتابه (خبايا الزوايا من تاريخ صيدنايا) الذي أصدره عام ١٩٣٢ أن الدير كان حتى أوائل القرن التاسع عشر حافلاً بالمخطوطات والأوراق السريانية، وبينها كل قديم ونفيس، ومعظمها من الكتب الدينية التي كانت موقوفة على الكنائس والأديار، وحين أراد الوكلاء أن ينفوا عن الدير نسبة السريانية، لم يروا واسطة أعجل، لإبادتها

والتخلص منها، من إيقاد النار فيها خلال أسبوعين.

وحين مر (نيبوهر) بدمشق سنة ١٧٦٢ قال: "بلغني أنه لا يزال في ولاية الباشا في الشام، بعض الضياع التي لا يتكلم أهلها إلاَّ السريانية" وقد أراد بذلك صيدنايا ومعلولا المتجاورتين، ويؤيد هذا الرأي السائح الإنكليزي (براون) الذي مر في معرّة صيدنايا ومعلولا فقال: "إن اللغة السريانية محفوظة هناك، يتوارثها الأبناء عن الآباء دون دراسة، وكنت أسمع مكارينا يتحادثون بهذه اللغة بدلاً من العربية التي تشبهها كثيراً في النطق". فإذا صح أن المعرة كانت حتى نهاية القرن الثامن عشر تتكلم السريانية، فكيف بالأحرى جارتها صيدنايا وهي أقدم منها عهداً، وأعرق نسباً في الآرامية؟".

وممن أثبت سريانية صيدنايا العالم الألماني (كارل رايتر) الذي قال في معرض كلامه: "وفي هذا القسم وحده من سورية حفظت اللغة السريانية لهجة بلدية في بعض القرى الجبلية، ومنها صيدنايا".

* * *

على الرغم من قرب المسافة بين صيدنايا ومعلولا، فقد انقرضت اللغة السريانية كلياً في صيدنايا وولت إلى غير رجعة، في حين أنها لا تزال مستعملة ومتداولة في معلولا، تلك القرية الوادعة التي تتشبث بالصخر كعش النسر، وتتدرج بيوتها الصغيرة كالسلّم، وبعضها مغاور حفرت في الصخر منذ أقدم العصور، وكثيراً ما يقصدها الرسامون ليرسموا لوحات من مشاهدها الغريبة العجيبة، ولا سيما (الفج) العميق. والفج - كما تقول التقاليد - لم يكن هكذا منذ الأزل، ممراً ضيقاً يفصل بين جبلين، ولكن القديسة (تقلا) تلميذة بولس الرسول، كانت تهرب ذات يوم من أبيها الوثني، ومن الجنود الذين أرسلهم لقتلها، فوصلت إلى معلولا، ولما رأت الجبل الشاهق يقف أمامها، ويسد عليها طريق النجاة، رفعت يديها إلى السماء وصلت بحرارة، فانشق الصخر الجبار، ومرت من الشق - الفج - بسلام، لذلك أبتنت ديراً لها في تلك البقعة الجميلة يعتبر بحق أقدم دير في العالم، وتضم إحدى حجرات الدير رفات هذه القديسة، بينما ترشح نقاط الماء بطيئة من السقف الصخري قريباً من القبر. ويعتقد الكثيرون أنه ماء عجائبي، يشفي أصعب أنواع العلل، وأعقد الأمراض، كما يعتقد المعلوليون أن القديسة تقلا - شفيعة قريتهم - ترد الأذى عنهم ببركتها الدائمة.

وفي أعالي القرية دير (مار سركيس) الذي يرتفع حوالي ١٨٠٠متر عن سطح البحر، ويطل على معلولا كالطود الشامخ، وترجع قبته إلى العهد البيزنطي، إضافة إلى كنيسة القديس (لاونديوس) التي بنيت في القرن الخامس الميلادي، ومعابد القديسين سابا وتوما وجاورجيوس، وقد اندثر أكثرها، وهناك خرائب أخرى كانت قديماً كنائس معروفة بأسماء القديسة بربارة، والقديس نيقولاوس والقديس شربين وكنيسة التوبة، ومغاور أثرية كثيرة نقش على جدرانها كتابات يونانية ترجع إلى القرن الأول الميلادي، وفي أسفل القرية معبد روماني يسمى (حمام الملكة) يقال إن الوثنيين كانوا يجتمعون فيه لممارسة أعمالهم المنكرة، ولما دعاهم أحد

القديسين إلى التوبة والإقلاع عن هذه الأعمال رفضوا فأهلكهم الله جزاء ما كانوا يفعلون، ثم أقام المسيحيون كنيسة في المكان نفسه. كل هذه الآثار شواهد ناطقة بما كانت عليه معلولا في الزمن القديم من الأهمية والاتساع.

* * *

أما صيدنايا فهي كلمة سريانية معناها (سيدتنا) أو صيد دنايا، ومعناها في السريانية أيضاً (أرض أو أماكن للصيد) وقد بنيت عام ١٩٨ بعد الميلاد، وأشهر ما فيها ديرها العظيم الذي بني حوالي ٥٤٧ للميلاد، على عهد الامبراطور البيزنطي يوستنيان في قصة مشهورة، وهو اليوم مؤسسة رهبانية أرثوذكسية، يضم حوالي خمسين راهبة ترعاهنّ رئيسة، ويؤمه كل عام آلاف الزوار من مختلف أنحاء العالم، ولا سيما في الثامن من أيلول عيد مولد السيدة العذراء.

أقيم الدير فوق رابية عالية تشرف على قرية صيدنايا التي تعلو حوالي ١٤٠٠متر عن سطح البحر، وفيه مكتبة قيمة تضم مئات الكتب المخطوطة الثمينة، وعدد كبير جداً من الأيقونات التي رسمت في القرن الخامس والسادس والسابع للميلاد، لكن أهمها على الإطلاق أيقونة السيدة العذراء التي رسمها القديس لوقا الإنجيلي البشير في القرن الأول للميلاد، ونقلت إلى الدير بعد زمن طويل من بنائه في قصة مشهورة، ويطلق عليها اسم (الشاغورة) أو (الشاهورة) ومعناها في السريانية المعروفة أو الذائعة الصيت.

وتوضع أيقونة الشاغورة الآن في غرفة مظلمة صغيرة تضاء بالشموع والزيت، ويتدلى من سقفها مصابيح عديدة مملوءة بالزيت، وفي جدارها الشرقي كوة ذات شبك من الفضة، علقت فوقه قطع وسلاسل ذهبية وفضية وصلبان مختلفة الأشكال من تقديم الزوار، ووراء الشبك المسدود أيقونة العذراء (الشاغورة) ويزعمون أنه يرشح منها زيت يشفي جميع المرضى الذين يقصدونها طالبين العون.

يحتل دير سيدة صيدنايا المركز الثاني في الأهمية بعد القدس من حيث كثرة الزوار للأماكن الدينية في الشرق، وتزداد شهرته اتساعاً بما تجترحه العذراء من عجائب نحو من يزورونه من جميع الطوائف والأديان للتبرك وطلب العون وتقديم النذور في جو عابق بالإيمان والطهر والقداسة وروائح البخور المنعشة، وكان هذا الدير ملجأ أهل صيدنايا وضواحيها أيام الكوارث والفتن، لوعورة مكانه، وصعوبة المرتقى إليه، والدخول من بابه الصغير، حتى لكأنه إحدى القلاع المحصنة، وقد لجأ إليه المسيحيون في الفتنة الطائفية التي حدثت في دمشق سنة ١٨٦٠، وفي أثناء الثورة السورية الكبرى عام ١٩٢٥.

ومن الآثار الباقية في صيدنايا، كنيسة القديس بطرس وبولس التي يعود بناؤها إلى عهد الرومان، وهي كالبرج المربع معقودة بحجارة ضخمة جيدة النحت والبناء، يدخل إليها من باب صغير، ويصعد إلى سطحها بدرج دائري كاللولب، وكنيسة آجيا صوفيا، ومقام مار الياس ودير القديس خريستوفوروس ودير مار توما ودير مار شربين ودير القديس جاورجيوس الذي رمم وصار مقراً لبعض الرهبان الأرثوذكس وغيرها من الكنائس والأديرة الموجودة في صيدنايا والقمم المحيطة بها.




لم يعد قلبي معي..

شعر : أ. كامل إسماعيل

لم يعد قلبي معي
لم تعد تلك الأحاديث الجميلهْ
تمشي فوق الدَّربِ
والأشواكِ والشّط الحنونْ
نامت الأورادُ
في كلِّ أصيص وحديقَهْ
لم تعدْ تنظر للشرق...
كما كانت تقولْ
لم تعدْ تكتب...
في دفتر الأيام
أغاني وأناشيدَ عجيبهْ
لم تعد...
ترسم أشباحاً
وأشكالاً وطيوراً عابرَهْ
هي أضحت...
في يد التاريخ
سيفاً عبقريّاً لا يضامْ
أصبحت...
تهجر أنساماً جرتْ
فوق أكوام القبورِ الدارسهْ
هي لم تعدْ
تعشق إنساناً
يخاف الموتَ
أو يخشى ظلام المقبرهْ
هي ليست...
من عشيقاتِ الدروب الوعرهْ







هي ليست...
من محبّي الحياة الطائشهْ
وأنا لستُ...
ممن سحق الخصب
بأطفالٍ جياعْ
وأنا...
لم أجعَلْهُمُ... خِصيانَ...
في سوق النِخاسهْ
وأنا لم أجعلْهُمُ...
عبدِانَ...
تسلخُهُمْ سياطُ الغادرين
وأنا...
لست الذي...
أختلسُ الخبزَ من أيادٍ...
لم يعد فيها عطاءٌ
وأنا... لست الذي
حفر القبر ليفشي
كلّ أسرار الحياة
وأنا لست الذي...
يختلس العشق...
من عيون العاشقينْ
وقلوب الصابرين
وأنا... لست الذي...
قتل البسمة في شفاه المتعبينْ
وجفونِ الآخرينْ
وأنا...
لست الذي... جهَّزَ خنجرهُ
ليصيد الطفلَ في مضجعهِ
أو على دفترهْ الأحمر...
أو بين السطور
فجأة...
خرس اللسانْ
فجأة... ساد صمتٌ مظلمٌ
وتناهى بالسكوت







حينها..
أشهر طفلي لعبةً
فيها بصيص وضياء
أطلق النار رصاصا...
ودوّت في المكانْ
عربدات الخوفِ
وأصواتُ الرصاصْ
مزقت ثوب الليالي الباردات
وسكون الليلِ... في الآفاقِ
والوادي السحيق
وابنتي الحلوة... صارت...
وردة بين الزهور
لم تعد حلوتي... طفله...
هي شبّتْ ونمت
وغدت بين الصبايا
نجمة كالياسمين
وتباهتْ بالجمالْ
وغدت بين أوراقٍ... القرنفلِ
مثلَ حسونٍ يغرد
نَشرتْ من حولها سرَّ الحياةْ
وعبيراً يتضوع
زرعت أكمامها... عطراً يفوحْ
من صنيع الله أضحت
لا مثيلَ ولا نظيرْ
نشرت... أعطت... تباهت
لفتت... أنظارنا نحو السحور
أيقظتني... من منامي
وتوارت خلفَ أسرار الحجاب
وتمنيت بقائي... نائماً...
خلفَ أبواب المنامْ
خلف أبواب الحقيقهْ
خلف أبواب المحبّهْ
في فناءِ الوجدِ
في سُوحِ التقارب والرجاء






الكريم محمد ﷺ ورسالته السمحاء في بعض إبداعات الشعراء النصارى العرب المعاصرين

بقلم:
أحمد سعيد هواش

لقد رزق الله تعالى بعض الشعراء العرب النصارى المعاصرين، ملكة البيان والإبداع الشعري لجانب الصدق والصفاء الذهني والأصالة العربية، ففاضت قريحتهم الثرة شعراً وحباً خالصاً يدل على النبل والأصالة العربية، انعكس في عطاءاتهم الشعرية بمديح الرسول العربي الكريم محمد ﷺ ورسالته السمحاء المرسلة للإنسانية جمعاء..

وهذا كان موضوع كتاب (شعراء النصارى العرب والإسلام) نصوص شعرية الذي أعده الباحث الأستاذ ماجد الحكواتي، وأصدرته مؤسسة جائزة عبد العزيز البابطين للإبداع الشعري بمناسبة اختيار حلب عاصمة للثقافة الإسلامية للعام ١٤٢٧ هجرية.

وقد أشار الأستاذ ماجد الحكواتي لبعض ذلك بمقدمته الرصينة للكتاب في أكثر من موضع، إذ قال: ".. ولا شك بأن المسيحي المعتز بعروبته يدرك أن الإسلام كان ضرورية عربية لكي يأخذ العرب دورهم كأمة فاعلة في محيطها وفي العالم، وإدراك هاتين الضرورتين يجعل التركيز على الشجرة لا على الفرع، ويفترض الابتعاد عن أي مساجلة في اللاهوت للتوجه نحو البشرية المشتركة ومتطلباتها (ص٧).

لقد أثبت الشعراء العرب النصارى بأنهم الأشجار الباسقة في دوحة العروبة والإسلام، وبرهنوا على أن النبي العربي الكريم محمد ﷺ هو صاحب أعظم رسالة سماوية، وهي للعالم أجمع وليست للعرب وحدهم.

يقول العلاّمة فارس الخوري: "... إن محمدا أعظم عظماء العالم، ولم يجد الدهر بعدُ بمثله، والدين الذي جاء به أوفى الأديان وأكملها".

وقول الياس خليل زخريا: "... محمد هو للنصارى العرب كما هو للمسلمين" (التراث الروحي والشعر الحديث للدكتور أحمد الحوفي) لذا تنادى الشعراء العرب النصارى في مواطنهم وفي بلاد المهاجرة للعودة للجذور، للعصر الذهبي للأمة العربية، زمن الشموخ، ودعوا لرص الصفوف، والوحدة العربية، وتمجيد الرسالة الخالدة التي حملها الرسول العربي الكريم ﷺ، وتضمنها كتاب العربية الأولى، (القرآن الكريم).

يقول الأستاذ ماجد الحكواتي في مقدمة الكتاب: ".. فقد لجأنا إلى الشعر الذي نظمه الشعراء النصارى العرب ليكون شهادة ناصعة في هذا المجال، وسندهش ونحن نطالع هذا الشعر أن الشاعر لا يقترب من الإسلام بخطى الحذر والخانق، ولا يتناوله من الخارج بعيون الغريب، بل يتحسسه من الداخل وكأنه أحد أبنائه" (ص٨).

ولقد ضم الكتاب أضمومة عبقة من رياحين شعراء كرام وقامات شعرية مميزة استعرضنا بعضها في هذا البحث.. وندخل إلى هذا البستان الذي حوى ما لذَ وطاب من ثمار شهية وظلال وارفة وأزهار عبقة وجلين لأن البيان لا يسعفنا في إعطاء الرسول العربي الكريم محمد حقه من التكريم، ولأنّ أريحية الشعراء وصدقهم وعفويتهم وطيب سريرتهم تجعلني أذوب حباً واحتراماً، لهم لأنهم أنصفوا وأحبوا الحبيب المصطفى ورسالته الحنيفة.

ولعل الشاعر الدكتور نقولا فياض، تكلم بلسانه ولساني عندما خاطب الرسول العربي الكريم محمد ﷺ بأن يلهمه بياناً ليهزَ به الزمان فقال:

نبي العُرْبِ ألهمني بياناً
على عجزي، أهز به الزمانا
وأرفع للنفْوس لواءَ حق
وأبسطه على الدنيا أمانا
وأجعل في حنايا كلِ صدرِ
لمولدك المبارك مهرجانا

لقد سما البيان بالشاعر مع سمو روحه النبيلة فاجتمع فيه البيان الرفيع والخلق السامي فأسمعنا هذا اللحن العذب الجميل، في مخاطبته للرسول العربي الكريم محمد ﷺ.

أما الشاعر المهجري محبوب الخوري الشرتوني، فيعلن عن انتمانه العربي واعتزازه بالنبي العربي الكريم محمد ﷺ في بيت واحد إذ قال:

ومحمدٌ بطلُ البريّة كلها
هو للأعارب أجمعين إمامْ

وأن الشاعر اللبناني المعروف مارون عبود، يسمي ابنه البكر (محمداً) حباً واعتزازاً به وبالإسلام الحنيف، ويوصي ابنه بأن يسير على خطى والده بعد وفاته، فقال:

عشت يا ابني، عشت يا خير صبي
ولدتْه أمُه في (رجب)
فهتفنا واسمهُ محمدٌ
أيها التاريخ لا تستغرب

وأوصى ولده بقوله:

فـإذا مـا مـت يـا ابنـي فـي غد
فاتّــبعْ خطــوي تغــز بـــالأربِ

وللـــشاعر حليم دموس العربي اللبناني أكثــر مــن قصيدة يمجد فيها الدين الإسلامي، ويمدح فيها الرسول العربي الكريم بشعر جميل جــزل العــبارة، داعــياً للتآخــي بين القرآن والإنجيل، فقال:

أنـــا كيف سرتُ أرى (العروبة) قبلتي
وبنـــي العـــروبة مُنيتـــي ومَرامـــي
أخـــوانُ قـــرآن بـــشير هدايـــة
ورفـــاقُ إنجـــيل رســـول ســـلام

وفي قصيدة أخرى يتغنى الشاعر حليم دمــوس بالرسول الكريم ومجد العرب الزاخر فقال:

تغنَّـــي عـــروس الـــشعر باسم محمدٍ
وهُـــزّي بنبـــي الدنـــيا ســـيرة أحمدِ
تغنّـــي بأمجـــاد الجـــدود وأيقظـــي
بقيـــثارة الإلهـــام أجفـــانَ هُجَّـــدِ
تغنّـــي بمجـــد العُـــرب فالعُـــربُ أمَةٌ
لهـــا فـــي ذرى العلـــياء أرفـــعُ مقعدِ

فأكــرم به من شاعر، وأحسن بها من قيــثارة، وأحبب فيه من أعذب لحن لأكرم أمة، ولأعظم ملهم..

وأما الشاعر المهجري السوري جورج صيدح، فأبدع أكثر من خمس قصائد بالرسول الكــريم ورسالة الإسلام المجيدة، وفي قصيدته (المــولد النــبوي) جمع الشاعر جوامع البيان فــيها، فجاءت على شكل لوحات معبرة تظهر كــل مــنها مشهداً من السيرة النبوية العطرة وصاحبها المختار، وقد استلهم الشاعر جورج صيدح بيانه الرفيع هذا من بعض سور القرآن الكريم، ورصَّع بعض أبياتها بجمل من سورتي (يس – الرحمن) فقال:

لا يعجـــــــز اللهُ الـــــــذي
إن قـــال كـــنْ للـــشيء كـــانْ
أمـــرَ الـــرمالَ فأطلعـــتْ
صـــحراءُ يثـــربَ أقحـــوانْ
للرســـــل آيـــــاتٌ وهــــــ
ـــــذا الطفـــل آيـــته البـــيانْ
يـــــا صـــــاحبيَّ بـــــأي آ
لاء الرســـــول تكـــــذبان؟

ففــي هــذه اللوحة يشير الشاعر إلى معجــزة النــبوة المرســلة من الله تعالى إلى الرســول العربي الكريم، فاجتمعت فيه عظمة الرسالة وآية البيان.

وقــد أشــاد أكثــر من شاعر بعظمة القــرآن الكــريم ومـــا حوى من سور وآيات معجــزة في البيان، إذ قال الشاعر توفيق بربر مظهــراً الأنــوار الساطعة للرسالة المحمدية، التــي أضــاءت سماء الجزيرة العربية وبددت ظلامها، فقال:

طالعـــتُ قـــرآنَ النبـــي فراقنـــي
مـــا فـــيه مـــن سُـــورٍ وآيـــاتِ

وعجبتُ كيف يجودُ قفرٌ بلقعٌ

جودَ الربيع بأطيبِ النفحات

من مهجة الصحراءِ ذرّ ككوكب

يهدي الورى في أحلك الظلمات

ونهج الشاعر الموسيقار السوري ميخائيل خليل الله ويردي نهج أمير الشعراء أحمد شوقي بقصيدته (وحي البردة) وهي من نفس البحر والرويّ، ولا تقل عنها جمالاً تعبيرياً، من دعاء واستغاثة فقال:

أنوار هادي الورى في كعبة الحرم

فاضتْ، على ذكر جيران بذي سلَمِ

وأرسلتْ نغم التوحيد عن ملَكٍ

كالروح منطلقٍ كالزهر مبتسم

فمزجُ روحك بالروح التي ازدهرتْ

يُغنيك عن مزج دمعٍ ساحم بدم

وشمُكَ العطر فوّاحاً بروضتها

ألذُّ من عشق ريم القاع والأكم

ولصاحب مجلة (الضاد) الشاعر الحلبي عبد الله يوركي حلاّق أكثر من قصيدة يشيد بها بالرسول الكريم ورسالته السماوية المعطرة. التي عطّرت الأجواء بأريجها العبق، وأحلت الهداية بدلاً من الجهل والعدل بدلاً من الظلم، وذلك بهدي القرآن الكريم والحديث الشريف فقال من قصيدة (قبسٌ من الصحراء):

قبسٌ من الصحراء شعشع نورهُ

فجلا ظلام الجهل عن دنيانا

ومشى وفي أردانه عبق الهدى

وأريجُ فضل عطّرَ الألوانا

إلى أن قال:

إني مسيحيٌ أجلُّ محمّدا

وأراه في سفر العلى عنوانا

ويصرخ الشاعر الحمصي وصفي القرنفلي مستغيثاً بالرسول العربي الكريم محمد ﷺ لإنقاذ الأمة مما أصابها من وهن وتخاذل، طالباً منه إحياء العزائم الميتة فقال من قصيدة (محمد والعرب):

منقذ الشرق قد أتيناك نشكو

ضيعة الحق وانخذال الأماني

فأحيي فينا ميْت العزائم وابعث

نائرات الهدى ودرْس المباني

قد أضعنا ذاك التراث وضعنا

في شعابِ الحياة والوديان

وللأخوين السوريين الشاعرين المهجريين الياس وزكي قنصل قصائد رائعة بمديح الرسول ﷺ وتمجيد رسالته السمحاء التي أضاءت الجزيرة العربية، وسطعت بنورها على العالم أجمع فكانت الحضارة العربية الإسلامية في بغداد، ودمشق والقاهرة والأندلس وهما يعتبران العرب والإسلام وجهان لعملة واحدة، ونكتفي بذكر مختصر عن الشاعر الياس قنصل الذي أبدع قصائد كثيرة بهذا الموضوع وكان يرسلها من مغتربه في الأرجنتين لبعض الدوريات العربية في

نهايـة السبعينات ومطلع الثمانينات من القرن الماضي.

وفي مطولته التي ضمنها مؤلفه (النبي العربـي الكريم) والتي بلغ عدد أبياتها الثلاثة والثمانـين يـستعرض الـشاعر فيها السيرة النـبوية المشرفة شعراً موزوناً مقفى من بحر واحـد وروي واحـد، يضفو فيه الشاعر من طـيب سـريرته وعروبته الحماسة والاعتداد والفخر بالجدود العرب والرسالة المحمدية وما تعرضـت من صعاب لم تثن حاملها عن السير الحثيث نحو غايتها لأنها رسالة للعالم أجمعين، فكـأن الـشاعر أحـد الدعاة للإسلام في هذا العـصر. وقـد اسـتهل الشاعر قصيدته هذه بمقدمـة نثـرية، استهل قصيدته بتمجيد جهاد المـصطفى لأنـه جهـاد الـشرفاء أصحاب الرسالات الخالدة، فقال:

مـــاذا تهـم طـوارقُ الحـدثان
خُلِـقَ الجهـادُ لكـل ذي وجـدانِ
الحـقُ شـرعك فـامض فيه مؤملاً
مـا آب غيـرُ الـبطل بالخـذلان
عمـيت نفـوسُ الـناس من أهوائها
فأعـد جمـال الـنور للعمـيان

وفـي بعـض مطالـع القصيدة يشير الـشاعر لإنـسانية الإسلام التي يتساوى فيها الجميع، لا فرق بين أسود وأبيض، فقال:

إنـي ذكـرتك يـا محمـدُ ناشـراً
روحَ الأخـوة فـي نبـي الإنـسان
يعلـو (بـلال) العـبدُ أشـرفَ قـبةٍ
لـيذيع مـنها اشـرف الألحـان
حـقٌ المـواهب أن يُقـدَر أهلهـا
لا فـرق فـي الأجـناس والألـوان

وفي ختام القصيدة يعلن الشاعر الياس قنـصل بأن هذه المطولة الإسلامية باقة مهداة لرسـول العـزة والكرامة رسول الله محمد بن عبد الله من خير بستان يملكه إنسان حرٌ يمجد العرب والإنسانية، فقال:

هـي باقـة تهـدى إلـيك زهـورها
مـن خيـر مـا يـزهو بـه بستاني

إلى أن قال:

تأبـى عـداء الآخـرين عروبتـي
ويعـف عـن لغـو الكـلام بيانـي

حاشا لمثلك يا شاعرنا الياس قنصل أن تعـادي أحـداً أو ينـزل بيانك الرفيع إلى لغو الكلام.

وفي قصيدة (عيد المولد النبوي) نرى الـشاعر الـسوري المهجـري ميشيل مغربي يعكـس الهم الوطني والقومي إلى هاجس من القريض الشعري السامي، وهو كسائر زملائه مـن الـشعراء العـرب لم يفرق بين العروبة والإسـلام، كما يشيد بلغة القرآن الكريم، اللغة العربية الفصحى، اللغة الأم التي خلدها القرآن الكريم والرسالة السماوية السمحاء التي حملها نبـيّ الإنسانية محمد ﷺ، فقال الشاعر ميشيل المغربي مخاطباً الرسول الكريم:

يــا مــن طلعت على الفصحى وأمتها
بنــصر يــضمُ الدهــرَ ســرمدَهُ
الــضاد لــولاك مــا كانــت مخلــدةً
ولا رَواهــا جمــالٌ أنــت مَــورِده
إن كــان للغــرب عــرفانٌ وفلــسفةٌ
فالــشرق يكفــيه مــا أعطــى مُحمّدُهُ

ونصر سمعان الشاعر ابن بلدة القصير الـتابعة لمديـنة حمـص الذي اضطر للهجرة للبــرازيل، حمل معه موروثه الوطني والقومي وأججــه الاغتــراب شــعرا رفـيعا نثره بحب العــروبة والرســول العربي الكريم محمد ﷺ، فقال من قصيدة (بني قريش):

بــزغت فحــيّت الجــوزاءُ مهــدكْ
وأعلــتْ فــوق مجــد الشمس مجدكْ
وكـــلّ فـــم الفـــصحى لـــسانٌ
يــردّد عـــند حمـــد الله حمـــدكْ
وكــم خلــت الممالــكُ مــن ذويهــا
وأنــت مــلأت قلــبَ الدهــر وحــدك

ومــن بلــدة (دير عطية) القريبة من دمشق يسمعنا ابنها وابن العروبة البار الشاعر المربــي عطــا الله المغــامس الحــب الصافي للرســول العربي الكريم محمد ﷺ ولكل رموزه وأطــيافه وخاصة الصحراء والرمال التي درج علــيها المصطفى والأجداد العرب فيفتخر بهم جميعاً إذ قال:

قلــت: هــذي الرمال يا حادي العيـــ
ـــسي، تــزكتْ بأطهــر الأجــساد
أنبـــتت أهلـــي الكـــرام وقومـــي
عـــرباً أيـــن صـــنوهم فـــي الـــبلاد

ثــم يشير الشاعر لمعارك العرب الأول الفخار، وخاصة موقعة (ذي قار) فقال:

يــومُ ذي قــار كــان ســابقة النصـــ
ـــر وبـيت القــصيد فــي لحن حاد

ثــم يأتــي الشاعر المغامس على ذكر انبـثاق فجـر الرســالة الإســلامية السمحة وصــاحبها، الرســول العربي الكريم محمد ﷺ الــذي قلــب الجزيرة العربية رأساً على عقب فقال:

وانجلـــى الفجـــر عـــن ولـــيد يتـيم
طـــيب النـــبت معـــرة الأجـــداد
وانجلـــى الكفـــرُ فالـــصحابة يـــسعد
ن بـــدين التوحـــيد فـــي كـــل نـــاد
أطلقـــوها (الله أكبـــــر) تـــدوي
فـــي وهـــاد وتغتلـــي فـــي نجـــاد

وكــان للــشعراء العرب الفلسطينيين الدور البارز بحب الإسلام الحنيف ونبيه الكريم محمد ﷺ، ها هو الشاعر سعيد جريس العيسى يشيد بصاحب الإسراء والمعراج مستلهماً بيانه من سورة (الإسراء) في القرآن الكريم فليمجد الإسراء وصاحبه فقال:

سبحان ربّك إذا أسرى بأحمده

من مسجد الله في إحدى لياليه

يطوي الجزيرة تجوالاً وينشرها

كأنه ضاربٌ في غمرة التيه

حتى إذا بلغ (الأقصى) تحفُّ به

ملائكُ الله والرحمن يحميه

وللشاعر سعيد جريس العيسى قصائد كثيرة منها: عالم البيد، في مولد الرسول العربي ، المولد الشريف، مولد الطهر والهدى، من وحي العيد، هلالٌ كريم، ابتهال، حكمة الله، وهذا يدل على سعة أفقه وعروبته وصدق محبته للمدوح صاحب المولد..

وكذلك الشاعر الفلسطيني نقولا يوسف حنا، ابن قرية الرامة، في حاضرة عكا بفلسطين الجريحة الذي نزح إلى القطر العربي السوري عام ١٩٤٨ وتابع دراسته في الجامعة السورية، وحصل على الإجازة باللغة العربية، وعمل مربياً، ومن الأسف بأن هذا الشاعر العروبي لم يأخذ اسمه طريقا للشهرة، وهو أجدر من غيره بها ويكفيه فخراً مطولته (من وحي القرآن) التي صدرت بمؤلف مستقل، وهي القصيدة الفائزة في مسابقة الجامعة السورية في عام ١٩٥٨، يقول الشاعر المربي نقولا حنا، في مقدمة القصيدة: "قرأت القرآن فأذهلني، وتعمقت به ففتني، ثم أعدت القراءة فآمنت.. آمنتُ بالقرآن الإلهي العظيم، وبالرسول من حمله.. النبي العربي الكريم، ومن إيماني العميق هذا استلهمت أبيات قصيدتي هذه فقال في مطلعها:

حجازٌ.. لقلبي بالحجاز هيامُ

ووجدٌ له طيَّ الضلوع ضِرامُ

بعدتَ ولم تبعد فأنتَ بخاطري

مقيمٌ، فلا كلَّ النزيلَ مُقامُ

حللتَ فؤاداً خالياً فملكته

وما قاده إلاّ إليك هيامُ

إلى أن قال:

يقول أتهوى منزلاً ما عرفته

فقلتُ: أما الأجداد فيه أقاموا؟

فما أنكر الآباءَ إلاَّ مهجَّنٌ

ولا الدارَ، إلاَّ مارقونَ لئامُ

إنه حبٌ صافٍ كرمال الجزيرة العربية التي شهدت أكبر ثورة ورسالة حملها النبي العربي الكريم ﷺ عبَّرَ فيه الشاعر نقولا حنا عن إحساسه وشعوره بحبه الصادق لتلك البقاع الطاهرة، القريبة إلى نفسه رغم بعدها الجغرافي، ثم يظهر الشاعر مكانة هذا الرسول العربي الكريم وبعثته الخالدة التي نزلت على العرب كالغيث على الأرض العطشى، فقال:

محمدٌ خير الخلق من آل هاشمٍ

نبيٌ كريمٌ والجدود كرامُ

لقد شرَّف اللهُ الوجودَ ببعثته

وتمَّ له فوق الأنام مقامُ

ثم ينتقل الشاعر لذكر أهمية القرآن الكريم وبيانه ودوره في الهداية والتغيير وهو كاملٌ لأنه آخر الكتب المنزلة:

كتابُ هدى لا ريب فيه مُشرِّعٌ

وللسلم والعمران فيه دعامُ

مفصَّلةٌ آياته عربيةٌ

فصاحٌ بها عزَّ البيانِ عظامُ

تلا كتب التنزيل لكن مكملاً

فذي أول التشريع وهو ختامُ

ومن هذه الباقة صوتٌ عربيٌ سوريٌ أحب الرسول العربي الكريم محمد ﷺ والإسلام الحنيف وأبدع فيهما قصائد كثيرة من أعذب الشعر يجللها الصدق والعفوية، اختار معد الكتاب أحداها وهي بعنوان (أوراق اعتمادي) للشاعر جاك صبري شماس ابن مدينة الحسكة السورية قال منها:

إني مسيحيٌّ أجلُّ (محمداً)

وأجلُّ ضاداً مهدُه الإسلامُ

وأجل أصحاب الرسول وأهله

حيث الصحابةُ صفوةٌ ومقامُ

كحَّلتُ شعري بالعروبة والهوى

ولأجل (طه) تفخر الأقلام

أودعتُ روحي في هيام (محمد)

دانت له الأعراب والأعجامُ

يقول الدكتور محمد إياد العكاري في تقديمه لديوان شيخ المجاهدين - شعر - جاك شماس - الذي حوى هذه القصيدة: "وكأني بشاعرنا يمتطي جواداً عربياً أصيلا يمضي به فارساً للكلمة مدافعاً عن العروبة، منافحاً عن قضايا أمته محيياً توأمة بين العروبة والإسلام".

وفي منتصف الستينات من القرن الماضي، نشر الشاعر جورج سلستي قصيدة بمجلة العربي الكويتية بعنوان (نجوى الرسول الأعظم) لفتت الأنظار نحو هذا الشاعر المقل والمجهول وتناقلتها الأقلام والكتب جاء فيها:

أقبلتَ كالفجر وضّاح الأسارير

يفيضُ وجهُك بالنعماء والنور

على جبينك فجرُ الحقِ منبلجٌ

وفي يديك مقاليدُ المقادير

إلى أن قال مظهراً الخير العميم الذي حملهُ الرسول العربي الكريم برسالته السماوية المكرمة لعرب الجزيرة العربية:

ما أنت بالمصطفى يا بيدُ مجدبةً

كلا، ولا أنتِ يا صحراءُ بالبورِ

وبعد فتلك أغان نفثتها قرائح قلوب شعراء - ليسوا مسلمين - أفاضوا ماء الشعر على وضع العرب المحزن، فتكونت من عبراتهم وحدة شعرية مميزة مقدمة إلى خاتم الرسل محمد ﷺ، اختارها أديب ذواقة للشعر العربي الأصيل ومحبٌ - بلا شك - للرسول العربي الكريم، فاجتمع في الكتاب جودة المضمون وحسن اختيار الأستاذ ماجد الحكواتي.




الحبُّ الخالدُ..

شعر الدكتور: حسين عباس أحمد

مـــا كـــانَ يعنــيني الهَــوى لـــولاها

تلــك الــتي أمــسيتُ عــبدَ هــواها

تلــكَ الــتي ســرقَتْ فــؤادي جهــرَةً

والــشَّمسُ تــسطَعُ والعــيونُ تَــراها

ربُّ الــسَّما مـــن عِــنْدِهِ أعطاهـــا

حـــسناً تمـــنَّعَ أن يخُـــصَّ سِـــواها

فكأنَّهـــا والله أبـــدعَ خَلْقَهـــا

وســبى العُقــولَ بــسحرها وبهاهـــا

خُلِقَـــتْ لـــتحترقَ القلـــوبُ بحـــبِّها

وتـــسبِّحَ الخَـــلاق حـــينَ نَـــراها

* * *

فالــشَّمسُ تــسطَعُ في الــسَّماءِ مــنيرةً

مـــسحورةً في مـــا تـــرى عيـــناها







تــــستعَجِلُ الإشــــراقَ قـــبلَ أوانِـــهِ

وتُجَــنُّ لـــو طــيفُ المَـــسا وافاهـــا

وتـــوَدُّ لـــو أنَّ الإلـــه يخُــــصُّها

فتـــضيءَ صُـــبْحَ حبيـــبتي ومَـــساها

* * *

أرضــي - وربِّــكَ - شمعــتي في ظُلْمَــتي

كــيفَ الــسَّبيلُ إلى الــضُّحى لـــولاها

وأنـــا المُكــبَّلُ بـــالظَّلامِ صَـــباحُهُ

والـــصُّبْحُ غايَـــةُ نَفْـــسِهِ ومُـــناها

قـــدْ أرضـــعتني العِـــزَّ مـــنذُ ولادتـــي

فإبـــاءُ نفـــسي صـــورةً لإباهـــا

* * *

لتعـــيشَ مـــا عـــاشَ الـــزَّمانُ عزيـــزةً

وقـــويَّةً كـــلُّ العِـــدا تَخْـــشاها

فلـــها الحـــياةُ ومـــا ملكـــتُ رهيـــنَةٌ

كـــي لا يـــدنَّس مـــا حييـــت ثـــراها

إن لم تَهُـــنْ دونَ الحبـــيبِ حياتُـــنا

فالعـــارُ كـــلُّ العـــارِ أن نحـــياها




الإنصات..

وفهم ما وراء

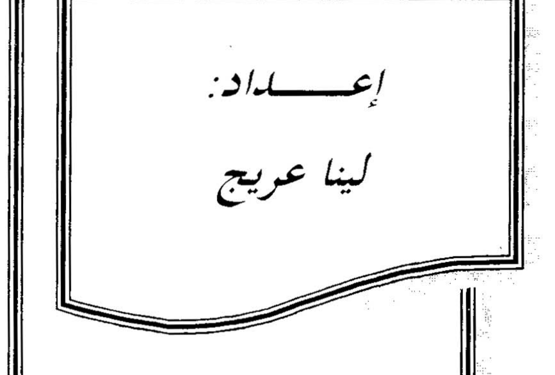
الكلمات..

- تأليف:
مادلين بيري ألين.

- ترجمة:
هالة صدقي

- الإشراف العلمي:
للدكتور عبد الرحمن توفيق

القاهرة ٢٠٠١



الكتاب يتألف من سبعة فصول:
١- الفصل الأول: بعنوان ما هو الإنصات
٢- الفصل الثاني: طريقتك في الإنصات كيف تحددت
٣- الفصل الثالث: تحطيم الحواجز بين المستمع والمتحدث
٤- الفصل الرابع: الإنصاتُ إلى أذنيك
٥- الفصل الخامس: أخدم إنصاتك بإنصاتك
٦- الفصل السادس: كيف تجعلنا ننصت إليك
٧- الفصل السابع: البوتقة

أحب أن أبدأ مقدمتي بمقدمة شهيرة يعتمدها الكاتب حيث يقول:"إنني أعرف إنك تعتقد أنك تفهم ما تقول ولكني غير واثق من إنك تدرك وتعي أن ما قلته ليس هو ما أعنيه"

ولك أن تتخيل مقدار الوقت المهدور ومواقف عدم الفهم والإجراءات الخاطئة المترتبة والتوتر الشديد الناتج عن الإنصات غير الفعالْ.

لنبدأ:

يتعلم الإنسانُ الكلام في سن ثلاث سنوات وقبل أن ينضج ولكن قد يبقى طول العمر بعد ذلك دون أن يتعلم كيف ينصت للآخرين - وقد يقضي معظم حياته سعيداً بالاستماع إلى كلماته هو - دون إدراك منه أو وعي بأن هناك دقائق أخرى تتجاوز طول اللسان وسرعة حركته وارتفاع صوت الحنجرة أو شدة حبالها الصوتية، إن فن الإنصات يكادُ يتجاوز في تأثيره فن الحديث فإذا كان الحديث أحد أهم مزايا الجنس البشري فإن الإنصات بفهم ووعي من أهم ملامح الأذكياء والعباقرة الذين تعلموا كيف ينصتون لآذانهم أكثر من إصرارهم على أن يجهروا بأفكارهم علناً في وجه المختلفين معهم لأنهم أدركوا مبكرا أن فتح الفمْ يُغلقُ الأذنْ، وإننا لا نتعلم عندما نتكلم، وهذا الكتابُ دعوةٌ لفهم ما وراء الكلمات وإدراك معنى الصمت الذي هو أثمن كثيراً من الذهب.

الفصل الأول: ما هو الإنصات..

يقول نوربرت وينر: "إن الكلام أو الحديث لعبةٌ مشتركةٌ بين المتحدث والمستمع تتم في مواجهة قوى التشويش والارتباك وإذا لم يبذل كلاهما الجهد، فإن تحقيق الاتصال فيما بينهما يصبح أملاً ضائعاً" ويعلق الكاتب هذا القول فيقول: "إذا كنت مستمعاً جيداً ومنصتاً ماهراً فإن استجابة الناس من حولك تكون أكثر إيجابية ويمكنك أن تعرضْ نفسك وتقدمها بنجاح أثناء مقابلة شخصية وأن تقلل الوقت الذي تحل مشكلاتك وأن تجعل علاقات العمل والصداقة أكثر سلاسة".

فالإنصات إذاً عمليةٌ ذهنيةٌ معقدة تحتاج إلى طاقة ونظام وهو وسيلة للحصول على المعلومات من المتحدث أو حتى من أنفسنا بتدعيم أفكارنا وآرائنا، وهذا من صميم مسؤولية المنصت إلى الآخرين. وإنصاتنا إلى أنفسنا هو الخطوة الأولى نحو التنمية الحقيقية التي تضاف إلى خبرتنا ومهاراتنا.

الفصل الثاني: طريقتك في الإنصات كيف تحددت

يركز الكاتب في الفصل الثاني على طريقتك في الإنصات وكيف تحددت، حيث يقول الدكتور إلتون مايو: "الصديق هو من يتكبد مشقة الاستماع إلينا ونحنُ نتحدث عن مشكلاتنا"

ويقول الكاتب: "إذاً للإنصات مستويات المستوى الأول وهو قريبٌ من الإنصات إلى الذات حيث يعني أن تتخلى عن أفكارك وتعطي اهتمامك وانتباهك كاملاً لمن تصغي إليه فهو إصغاءٌ بالقلب والشعور معاً.

أما المستوى الثاني: فهو مستوى السماع وليس الاستماع وعند هذا المستوى يتسلل شعورٌ زائفٌ بأن المستمع يُنصتُ جيداً ولذلك فإنه يؤدي إلى مشكلات عديدة، أخطرها سوء الفهم بسبب ضعف التركيز.

وبالنسبة للمستوى الثالث: يتمثل في أن يُنصت الشخص لفترات قصيرة، لما يريد الاستماع إليه، ويبعد عن مسامعه ما لا يرغبُ في سماعه وهو يتابعُ الحديث فقط حتى يجد الفرصة ليتحدث هو، ونحن نمرُ بمراحل الإنصات الثلاث في اليوم الواحد، طبعاً لا يخفى عنَّا جميعاً أن المستوى الأول هو الأفضل لتحقيق الفائدة والتواصل.

ولنناقش معاً الإنصات.

البند الأول: من المهد إلى الطفولة إلى الرشد، ولدى دراسة طريقة الإنصات وكيفية تحديدها تبين أن قدرتنا على الإنصات تبدأ من المهد إلى الطفولة إلى الرشد وحاجتنا إلى لمسات الحنان لا تنتهي لأن كل منا يحتاجُ لاهتمام وتعاطف الآخرين معهُ.

الفصل الثالث: تحطيم الحواجز بين المستمع والمتحدث

لم يغفل الكاتب في الفصل الثالث علاقة المستمع والمتحدث حيث تحدث عن تحطيم الحواجز، بينهما مستشهداً بقول لآلان لاكين: "إنني أضع كل تركيزي في الإنصات في كل مناقشة" (من كتابه كيف تتحكمُ في وقتك وحياتك).

ومن هنا نستطيع أن نعلم أطفالنا الإنصات منذ الأعوام الثلاثة الأولى من العمر فالكثير من الكبار لا يدركون أن لديهم مشكلات تتعلق بالإنصات وانشغال التفكير في أمور أخرى ويظل العقل يتجول هنا وهناك ولكن في أمور تتعلق بالموضوع نفسه كما وإننا نتوقف عن الإنصات عندما تشغلنا ملامح وجه المتحدث أكثر من حديثه أو إذا احتكر أحد الحاضرين الحديث كله لنفسه أو كان الموضوع غير هام بالنسبة لنا، إذاً فالتعرف على حواجز الإنصات يساعدُ على إيقافها لكننا نستطيع الإنصات بفعالية أكثر عندما تكون معنوياتنا مرتفعة.

ويركز الكاتب في البند الثاني على حقيقة الخرافة التي تقول: (إن الكلام فقط هو الذي يمنح القوة) وهذا موروثٌ خاطئٌ لأن الكلام يمنحنا القوة أثناء الخطب أو لبيع منتجات للعملاء أو لترويج فكرة معينة أو

لإقناع الآخرين برأينا دون استخدام ارتفاع الصوت.

الفصل الرابع: هل تنصت إلى أذنيك..؟

يسألنا الكاتب في الفصل الرابع هل تنصت إلى أذنيك؟ حيث يقول هوارد نيوبر جارو ومار جوري لي: "أن تفهم ما يقول شيء رائع... لأن الفائز يستخدم ما يفهمه في اتخاذ القرارات" (من كتابه الفائز والخاسر)

غالباً ما نصدم إذا عرفنا الطريقة التي نتحدث بها إلى أنفسنا وسبب الصدمة هو سلبية وضعف الحوار الداخلي الذي تنتج عنه ردود أفعال سلبية تلقائية يؤدي استمرارها إلى ظواهر متعددة وسلوكيات مرفوضة، تقوقع وانعزال عن الناس ضغط وتوتر، شخصية مائعة غير حاسمة، كل هذه الظواهر تؤدي إلى أن نفقد قوة الشخصية ومن الصعب أن نفهم الآخرين إذا لم نتعلم كيف نستمع إلى أنفسنا من الأعماق وكيف نكون أصدقاء لذاتنا وليس أعداء.

يتحدث الكاتب في البند الأول عن دورة الذهاب إلى مكان محدد فهي تعطينا الثقة والتقدير للذات وزوال التوتر والإحساس بالقوة والأهمية وقد نسعد كثيراً عندما نعلم أن العقل البشري لا يستطيع التفكير في شيئين في وقت واحد وبالدرجة نفسها.

البند الثاني نظام الاعتقاد: اعتقاداتنا تتكون في داخلنا منذ سن مبكرة حيث توجه حياتنا كلها فيما بعد فبعضنا في لحظات الغضب نجعل كل من في المكان يسمع إننا غاضبون وبعضنا ينسحب من الموقف ويظل هادئا بالرغم من أن الاثنين يحملان مشاعر الغضب والاستياء نفسها، لكن الطريقة مختلفة.

البند الثالث: التصور السلبي الداخلي في الذات. هناك مواضع ومناطق في داخلنا نخفيها أو نحاول إخفاءها ويعتبر هذا الإخفاء ظاهرة من وجهة نظر العالم النفسي (أبراهام ماسلو) الذي يقول:"إن المناطق التي نرفضها أو نقمعها في داخلنا لا تموت للأبد.. إنها فقط تختفي في اللا شعور وتؤثر علينا في طبيعتنا الإنسانية لكننا نميل إلى ألا ننتبه لها، مثل لا أعرف ما الذي جعلني أقول ذلك... أو لا أعرف ما الذي حدث لي كي أتصرف بهذه الطريقة...".

ولي إضافة شخصية في هذا حيث في حياتنا العادية نقول: (ما في القلب يظهر على فلتات اللسان).

يحدثنا الكاتب في الفصل الخامس. عن الإنصات فيقول لنا ((أخدم إنصاتك بإنصاتك)) مؤكدا على قول الرئيس الأميركي هاري ترومان: "أجدر الأشياء بالتعلم.. هي الأشياء التي نتعلمها بعد أن نعرفها جيدا"

ويعلق الكاتب على هذا فيقول:

من المواقف الهامة والحساسة والتي تحتم علينا أن يكون إنصاتنا فيها في المستوى الأول هو عندما يتحدث إلينا أحد الأفراد عن مشكلة هامة تؤرقه ويحكيها لنا باهتمام وانفعال علينا أن نعطيه جل اهتمامنا وإنصاتنا وما لا يدع مجالا للشك وهو الأهم الطريقة التي ننصت بها للآخرين أو نتحدث بها إليهم تعتمد على الطريقة التي يجيبون أو يستجيبون بها تجاهنا، وعلينا أن نتوقف عن الحديث إذا شعرنا أن المنصت لا يعطينا الانتباه وعندها سوف يتساءل عن التوقف وينصت.

أما عن الهدف في الحياة فيتحدث الكاتب في البند الأول عنه فيقول:"عندما يظهر هدف أمامنا فنحن نصبو إليه ونجاهد من أجله ونعمل بكل طاقتنا فالعمل الشاق لا يضايق أبدا لأنه من الهام جدا أن تصبح شيئا ذا قيمة وسوف نكون دون أن نتسلق الآخرين لتحقيق أهدافنا.

الفصل السادس: كيف تجعلنا ننصت إليك.

يذكرنا الكاتب بسؤال هام في الفصل السادس (كيف تجعلنا ننصت إليك..؟؟)

مردداً قول بجوان راشنيش: (ذات يوم كان صديقان يسيران فوق رصيف مزدحم

بالبشر وسط المدينة وفجأة توقف أحدهما عن السير مندهشاً وقائلا: "هل تسمع هذا الصوت الجميل لطائر الكروان.. ولكن الشخص الآخر لم يكن يسمعْ فسأل صديقه كيف استطاع أن يسمع صوت الطائر وسط كل هذه الضوضاء ولكن الرجل الأول.. وكان خبيراً في علم الحيوان كان قد درب نفسه على أن يسمع صوت الطبيعة.. ولكنه لم يشرحْ.. بل أخذ قطعة نقود معدنية من جيبه وألقاها على الرصيف فانتبه إلى صوت ارتطامها بالرصيف عشراتٌ من المارة. إذاً يا صديقي نحن نستمع إلى ما نريد أن نستمع إليه) (من كتابه نظام الانتقال والسمو)

إن الأمر الحيوي والفعال الذي يتعلقُ بموضوع الإنصات وهو ضرورة أن نكون على علم بالقوة التي بداخلنا والتي تؤثر في الآخرين وتجعلهم ينصتون إلينا. فنحن إذا أنصتنا جيدا وباهتمام فإننا نوحي للمتحدث ضمنا أنه سوف ينصت لنا عندما يأتي دورنا، وكي نجذبهم يجب أن نتعرف على الأشياء التي تصرفهم بعيداً عنا إن اختيار الكلمات المنطوقة وغير المنطوقة ونبرة الصوت ونغمته وشدة الحبال الصوتية ولغة العيون واتصالها وما أدراك بلغة العيون ومدى قوة رسائلها والإيحاءات والحركات والابتسامات فهي تشرح القلب والروح، إن التزام الصمت والتلامس مع المتحدث إذا دعت الحاجة أمران في غاية الأهمية، وهنا اعتقد إنه لا بد من الانتباه الكامل واستنفار الحواس الخمس وحتى استحضار السادسة من أجل ضمان الفائدة.

الفصل السابع: البوتقة

هناك أفكارٌ شائعةٌ تقول: (لقد خلقنا الله عز وجل بأذنين وفم واحد) والبعض يقول (إن الله أراد بذلك أن نقضي في الإنصات ضعف الوقت الذي نقضيه في الكلام)... بينما البعض الآخر يقول: (إن سبب ذلك هو أن الإنصات أصعب بكثيرٍ من الكلام).

وهنا يتساءل الكاتب: ما الإدراك الحسي..؟ وماذا يدرك العقل..؟؟

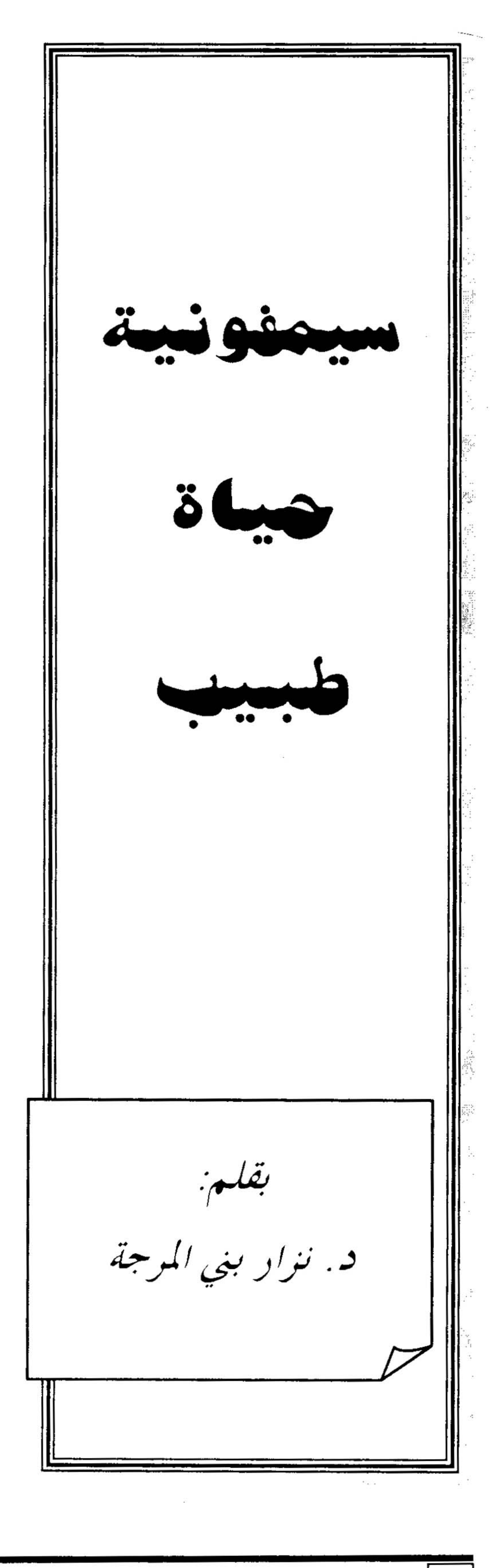
يعتمد الإنصات الفعال على ما يجري وما يحدث فعلاً في القلب والعقل أكثر مما يعتمد على ما يحدث بعيدا عنهما فالعقل يستنتج أن الآخرين سوف يعاملوننا بالطريقة نفسها التي نعاملهم بها، من الاحترام والتقدير والعكس بالعكس. وعلى ذلك نستطيع أن نبني لأنفسنا جوا نعيش فيه، إما عدائيا أو ناقداً أو صديقاً، وفي كل مرة نصدر حكماً ننتقد فيه الآخرين نعيش نحن لحظات المرارة والأسى ونتجرع مرارة سوء تصرفنا. إننا بقدر ما نسمح به للآخرين بتحقيق ذاتهم وكيانهم بقدر ما يسمحون هم لنا بعمل ذلك، كما أن الانتباه لرد فعل الآخرين واستجابتهم تجاه أقوالنا وأفعالنا أمرٌ حيويٌ في غاية الأهمية والوسيلة الوحيدة أمامنا كي نضع كل إنسان في موقعه المناسب هي الإنصات جيدا لما يقولونه وكيف يقولونه. ولنعلم أن تقييمنا للآخرين يخبرنا ويخبر أصدقائنا عنا ماذا نحن بمواقعنا وحجمنا الحقيقي داخليا وخارجيا ويكشف لنا حقائق عن أنفسنا قد نكون نجهلها.

المديح

تطرق الكاتب إلى أهمية المديح وميزاته الحسنة وضرورته في العلاقات الاجتماعية فهو كلماتٌ رنانةٌ تطرب لها الأذن والقلب أحياناً وهو يجذب الانتباه والسمع.

وقد نتعجب عندما نعلم أن بعضنا يستاء من المديح ويخافه معتبراً إن ذلك احتكارا له واستقطابا، أو لأنه يعتبر من يقدم له المديح هو في الموقع الأعلى.

ونلاحظ أن أغلبنا يستخدم المدح من أجل أن يغير الشخص الآخر شيئاً ما في داخله وتصرفاته السلبية إلى الإيجابية، أو من أجل تحقيق مأرب (مادي أو معنوي) على حسب قولنا (من ظن بك خيرا فصدق ظنه).



سيمفونية حياة طبيب

بقلم: د. نزار بني المرجة

ينطلق الصوت: ما التاريخ؟ "ويردد المرء ذاك السؤال المؤرق.." ليعود رجع الصدى هادراً بألف جواب وجواب، يختصرها كلها الإنسان ذاته! أجل فالقدر والإنسان "بإرادته ومشاعره وتجليات روحه" هما من يصنع الحاضر مثلما صنعا من قبل التاريخ!

وكما القمم والهامات المرتفعة هنا وهناك على وجه البسيطة، تأخذ وجهة العين، وترنو إليها الأفئدة لتبقى علامات على مر الزمن، كذلك هم الرجال الحقيقيون المبدعون المساهمون في صوغ الحياة، وللإنصاف أيضا فإن الكلمة.. هي التي كانت في البدء.. وهي التي ستبقى تكشف معدن أولئك الرجال.. فحق لها أن تختصر كل المقولات والنظريات لتبقى خالدة على صفحات الزمن..

لقد أردت من هذه البداية إلقاء الضوء، ووضع القارئ في صورة شخصية نعتز بها.. هي شخصية الأديب والطبيب أمين أبو عبيد، لأن عمره – أمدّ الله فيه – يختصر هو أيضاً كل ما قلناه ويقوله كل من عرفه عن قرب أو عن بعد.

وقد كان لي شرف معايشته عن قرب في العديد من المواقف النقابية والإنسانية والثقافية، التي أتاحتها لي فرصة اجتماعي وإياه، في مجلس نقابة مركزية واحد، على مدى دورتين كاملتين ونيف، أي لأكثر من عقد من الزمن.. كان حافلاً بالبناء والعطاء في نقابتنا العتيدة، ولي الشرف أن تجتمع لوحة تشييد وإنجاز مقر النقابة المركزية بدمشق، اسمه واسمي على لوح رخاميّ واحد، يخلد قائمة أسماء مجلس نقابتنا بدورته الذهبية، التي قامت بذلك الإنجاز برئاسة نقيبنا الأستاذ الدكتور فيصل ديوب.

لقد أهداني الأخ الدكتور أمين أبو عبيد كتابه القيّم (إيقاعات في حياة طبيب) وخطّ اليراع يومَها بعضاً من انطباعاتي السريعة بعد الاطلاع على ذلك الكتاب (الوثيقة) الذي يؤرّخ لحياة حافلة بالأحداث والمناسبات والمواقف

النبيلة. تترك في محصلتها انطباعا أكيداً بأن حياة أديبنا الدكتور أمين أبو عبيد، إنما هي سيمفونية حقيقية، وليست إيقاعات فحسب.

وتشاء المصادفة أن أستكمل تدوين انطباعاتي لتكون بمثابة شهادة لي حول ذاك الكتاب، في وقت تزامن مع انعقاد المؤتمر الثلاثين لنقابتنا الغالية، نقابة أطباء الأسنان في سورية، والتي كان لها عند كلينا حيز كبير من العمر والعشق والاهتمام.

أجل لقد شاءت الصدف أن أدلي بشهادتي هذه على بعد أمتار فقط من بحر طرطوس - ولا أقول البحر الأبيض المتوسط! - ولتترافق كلماتي وعباراتي وعواطفي.. في ذلك المساء مع هدير الموج.. حتى خيّل إليّ أن كل موجة تهدر لتؤكد مشاعري وصدق ما أكتب وأقول، وذهب بي الخيال مع اللجين، وقت الغروب، لأرقب العديد من السفن في ذاك الأفق البحري، والتي بدأت تضيء بعد حلول المساء رويداً.. رويداً.. كالنجوم. لتبدو لي وكأنها المحطات المضيئة في حياة أديبنا الدكتور أمين أبو عبيد.. وما أكثر تلك المحطات وأغناها: عطاءً وموهبةً وأصالةً!.. حتى لكأن كل واحدة منها تحتاج إلى وقفة خاصة، أجل لكأنّ الأمواج هي أيامه العاديّة ولكأنّ السفن منارات ومحطات في عمر الأديب الطبيب.

وكما يلاحظ قارئ ذاك الكتاب الجميل، فالدكتور أمين أبو عبيد، هو ابن القرن العشرين العابر إلى القرن الحادي والعشرين بسنوات عطاء متواصل، لا يعرف الكلل أو الملل، وحكاية العمر عنده تشبه حكايات أولئك العباقرة في تاريخنا، وخصوصاً تلك البداية المتميزة - حسب قناعتي - حيث شاء القدر أن يساكن التلميذ أستاذه الشاعر الكبير المحامي فيم بعد الأستاذ ابراهيم منصور، في البيت والمدرسة، حيث لكأنهما الشيخ والمريد! وليكون حلمه بعد إنهاء دراسته أن توجد مدرسة حقيقية بكل ما فيه الكلمة من معنى في قريته (بحنين) وسماها (إعدادية الأمين الخاصة) وتلك كانت مشروع حياته النبيل الذي أهداه لضيعته الجميلة.. فيا له من إنجاز وعطاء من ابن بار لقريته البارة، أراد أن يكون مشروع حياته مصنعاً للرجل والعلم والثقافة والفكر والإبداع.. ليختار بعدها مهنة العمر الطبية الشريفة (طب الأسنان) وليكون أيضاً رائداً في تلك المهنة.

وفي السجل الذهبي لحياة أديبنا الطبيب، محطات مضيئة هامة، تجلت في وقفات الفخار والعزة. عندما كان له شرف معايشة القائد الثائر الكبير البطل المعروف الشيخ صالح العلي.. وعندما كان له شرف التحدث، وحق الكلام، ومخاطبة القائد الخالد حافظ الأسد، في أكثر من مناسبة.

كما كان له شرف معايشة مفكرين وأدباء كبار، أمثال: الأستاذ الدكتور فيصل ديوب، نقيب أطباء الأسنان في سورية، وبنفس الوقت رئيس اتحاد أطباء الأسنان العرب، والدكتور عبد اللطيف اليونس، والدكتور أحمد عمران الزاوي، والشاعر الكبير عبد اللطيف محرز، واللغوي الكبير محمد علي يونس، وأستاذه الشاعر إبراهيم منصور، والأستاذ جبران جريج، والأستاذ سعيد تقي الدين، والشاعر مدحة عكاش، وصديقه الدكتور خير الدين السيد، وله الشرف أيضاً بمخاطبة الرئيس جمال عبد الناصر في عامة الجزيرة (دير الزور) وغيرهم وغيرهم وهم أكثر من أن يعدوا ويحصوا..

وكانت له وقفات عز وفخار، وكلمات متميزة في مئات المواقف والمناسبات الوطنيةً والقومية، والتي كانت تعبر عن سمة الوفاء التي طبعت شخصيته بحميمية قلّ نظيرها.. أجل ذلك هو الأديب الدكتور أمين أبو عبيد الذي تتجسد فيه سمرة الأصالة، وعشق الأخضر والأرض، والإبحار الدائم في الأزرق الحلم.




أحاور طيفك..

شعر : خالد سرحان الفهد

وعــــزَّ علـــى خافقـــي المـــوردُ
بمــــن بعــــد عينـــيكِ أســـتنجدُ

وأنـــتِ الغـــرامُ القـــديمُ الجديـــدُ
المهـــذّبُ والطُّهـــرُ والمَعْمَـــدُ

فقلـــبي ووجهـــك والـــصبحُ لاحَ
سمـــيرانِ، فالللـــيلُ والفـــرقدُ

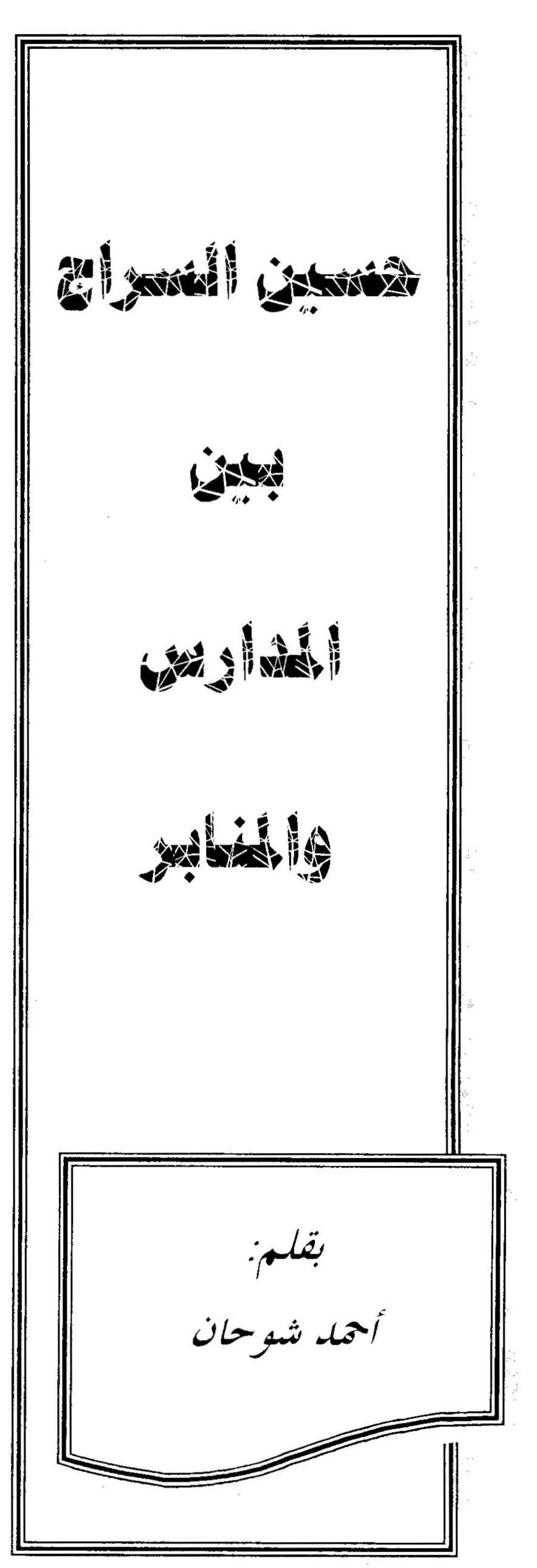
ومـــن عـــاش دون غـــرامٍ جمـــيلٍ
إذا ملَـــكَ الكـــونَ لا يُحـــسدُ

أحـــاورُ طـــيفكِ صـــافيْ الـــرجاءِ
أكـــادُ علـــى غفلـــةٍ أســـجدُ

وأســـتغفرُ اللهَ طـــيفُ الحبـــيبِ
يُقـــدَّسُ يـــا نفـــسُ لا يُعـــبدُ

وفي الحـــبّ والحـــبُّ لـــيس يُـــلامُ
يُـــذلُّ ويـــستعبدُ الـــسَّيدُ



عالم جليل، وعلم بارز من أعلام الفرات، كان يمتاز بعلمه الثر وثقافته الواسعة. وتواضعه وبشاشته، يمشي بانحناء ووقار، ويهش لسائله ويرحب به، فلا يترك يده من يده إلاَّ بعد أن يتمتم السائل لله بالدعاء والغفران له.

لعب دوراً بارزاً إبان الحكم الفرنسي، فكان خطيب المظاهرات، والوطني الذي وجّه الجماهير المتمثلة بالطلاب إلى المقاطعة والمعارضة والقاومة، يقرأ كثيراً، ولا يحرم نفسه من علم من العلوم، أو مورد من موارد الفكر والثقافة.

كان بحراً في علومه، بحراً في دروسه ومواعظه، سيلاً جراراً في خطبه على المنابر، لأنه كان يخاطب جماهير واسعة جاءته من جميع أحياء دير الزور لتسمع منه. ولم يلوث سيرته بمطامع سياسية، ولا كان ممن يتردد على المسؤولين وغيرهم طلباً للفتات والوجاهة، لقد عاش عزيزاً، ومات كريماً.

مولده ونشأته

ولد الأستاذ حسين السراج بدير الزور عام ١٩٠٧، وينتمي لأسرة تمتاز بالعلم والمعرفة، وفي بيت والده ترعرع ونشِأ، في حي يعتبره أهل المدينة من أرقى الأحياء التي سكنها الموظفون والأغنياء ورجال الدولة الذي يقومون بتسيير أمور المدينة ودوائرها، وإن كان أغلبهم من الوافدين الذين سكنوا المدينة مؤخراً، ثم انصهروا فيها فكانوا كأهلها تماماً.

دخل المدرسة الابتدائية، ثم التحق بحلقة العلاقة الكبير الشيخ حسين الأزهري البغدادي الذي نزل دير الزور واستقر بها، فكان صاحب الفضل في نشر العلم فيها بعد أن كانت سراباً.

كان يجلس في حلقة الأزهري إلى جانب عبد القادر ملا حويش ومحمد الفراتي، وحسين الرمضان، ومحمد سعيد العرفي، وحمادى الشعيبي قاضي المياذين، وملا محيمد الخرسة مفتي البو كمال، وعلي صائب، وعبد الرحمن الطبال، وغيرهم كثيرون، وكانوا من شرائح مختلفة في الاتجاهات الفكرية والدينية والأدبية. وقد استطاع الأستاذ السراج أن يلتزم بخط شيخه في الأمور الشرعية، ويغذي موهبته العلمية والأدبية في مطالعة كتب الأدب، إلى جانب قراءة الصحف اليومية والمجلات ومتابعة كل جديد في عالم الثقافة، وأكاد أجزم أنه الشيخ الوحيد الذي كان يمتاز بهذه المزية إلى جانب الشاعر عبد الجبار الرحبي.

وقد حصل على إجازة في العلوم العقلية والنقلية من الشيخ الأزهري، كما منحه الشيخ العرفي إجازة كذلك رغم أنه كان يدرس معه لدى الأزهري، وإن كان يفوقه سناً.

وقد استطاع الأستاذ السراج أن يكوّن لنفسه شخصية متميزة بين أقرانه فهو شيخ وأديب ومثقف مجتهد في أغلب أجوبته الشرعية، وهو يجيب السائل على قدر ما يستوعب من الفهم والإدراك، فلا يلتزم برأي فقيه أن مذهب، بل يأخذ من الجميع ويحترم آراء واجتهادات الجميع. وكان هذا ديدنه في خطبه المنبرية، ودروسه ومواعظه في المساجد، وفي قاعات التعليم في المدارس الثانوية؛ ففي إضرابات عام ١٩٣٦ الذي شاركت فيها دير الزور مشاركة فعالة فأغلقت المدينة، وقام المواطنون والطلاب بمقاومة الفرنسيين مقاومة عنيفة كان الأستاذ السراج يلهب الجماهير بخطبه، ويحث الطلاب في قاعات الدراسة على المقاومة.

في رحاب التعليم

استطاع الأستاذ حسين السراج أن يكون شخصيته الثقافية والعلمية من خلال دراسته ومصاحبته للعلماء، وتغذية مواهبه المتعددة بالقراءة الغزيرة. وقد عيّن مدرسا لمادتي التربية الإسلامية واللغة العربية في التجهيز (ثانوية الفرات) عم ١٩٣٨، واستمر في التعليم إلى أن أُحيل على التقاعد قبيل وفاته حيث انتقل من التعليم في المدارس إلى التعليم في المساجد. وكان رحمه الله يتحدث عن هذه الثانوية ودورها ودور المدرسين فيها إبان الاستعمار الفرنسي فيقول: "هذه المدرسة على صغرها وقلّة طلابها كانت تعمل عملا جباراً أمام الإفرنسيين، فقد كانت المدرسة يدا واحدة على العدو، وكنا نقود المظاهرات في كل مناسبة وكانت المدينة لا تتأخر عن التأييد فتغلق المدينة لأية إشارة، وتساعد في كل مناسبة، وكان المدرسون والطلاب يعيشون كما يعيش أهل البيت الواحد ودا وأخوة".

كان يخطب الجمعة والعيدين في الجامع الكبير (الوسط) في دير العتيق، حيث

يلهب المصلين حماساً ووطنية ضد العدو الفرنسي، كما كان يكتب المقالات في المجلات كمجلة الصداقة والفجر والفرات في الثلاثينيات من القرن الماضي وبعد ذلك نشر في مجلة الطالب العربي الدمشقية.

ولم يتردد في المشاركة في الاحتفالات الدينية، والمهرجانات والتأبين والأفراح والأتراح، مستغلاً في كل ذلك اجتماعات الناس ليبث فيهم روح الدين الإسلامي، والعمل من أجل التحرر والنهوض والاستقلال، حيث كان جريئاً في مواعظه ومواقفه، إلى درجة أنه كان يقسو أحياناً في لهجته، مما جرّ عليه وبالاً من السلطة الغاشمة، وذلك حتى آخر حياته، وحين قتل الفرنسيون الشيخ فاضل البدر أحد شيوخ عشيرة البقارة الوطنيين هاج الناس في المدينة وحملوا ما يقتنونه من سلاح ثم اندفعوا إلى دار المحافظة، فأطلّ عليهم الشيخ حسين السراج رحمه الله وألقى فيهم خطبة حماسية ألهبت فيهم الحماس.

الخطيب

في السنوات الأربع التي سبقت وفاته كنت أُرافقه مرافقة الظل للأصل طلباً للعلم، وحباً في المنهج الذي يتبنّاه ويمارسه، ذلك أني رافقت عدداً من الأشياخ فرأيته يأتي في مقدمتهم، إخلاصاً وأسلوباً وعلماً متعدد الجوانب، وقد منحه الله صوتاً جهورياً يفهمه القاصي والداني. وكان مرجعاً لأبناء مدينة دير الزور وغيرها، له علاقات حميمة بشخصيات علمية بارزة كالشيخ علي الطنطاوي والشيخ الاسطواني وغيرهما.

وقد سمعت منه في أواخر أيامه في جامع أبي عابد مجموعة من الخطب المنبرية لم أسمع مثلها من خطيب في مدينة دير الزور، إلاّ اللهم ما كان يلقيه المفكر الموسوعي الشيخ محمود مشوح مفتي الميادين الذي كان يأتي إلى دير الزور ويلتقي الأستاذ السراج في المسجد العمري، فكان السراج يقدمه ليخطب الجمعة في الجامع العمري مراراً.

إحدى خطبه

كان رحمه الله قد قدّم لي ثلاثة دفاتر فيها خطبه التي كان يلقيها منذ ثلاثينيات القرن الماضي، وقد قرأتها وأعدتها له. قال في خطبه له بعد عيد الفطر عام ١٣٥٨هـ مخاطباً المصلين:

"سنبدأ بحصاد ما زرعه فينا شهر رمضان من تقوى، وبحصاد ما زرع من قوة إرادة، سنبدأ بحصاد ما زرع من إخلاص، كذلك من تعويد على الإحسان، ومن فضيلة وكمال، وسنرى حصادكم وزراعتكم، وبقدر ما زرعتم تحصدون، وبقدر ما عملتم تجازون، ومن يعمل مثقال ذرة خيرا يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره.

إنكم مهما عبدتم الله، ومهما اتقيتم، ومهما تقربتم، فلن تزيدوا ملك الله، وإنما بقدر ما تتقربون إليه يكون النصر، وتكون السعادة،

ويكــون النجاح، وتكون الرفعة، وإن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم.

إنكــم تــريدون الحــرية، تــريدون الاســتقلال، تريدون النجاح، تريدون الخلاص من زق الاستعمار،تزيدون نصراً باهراً، وعزة ومجــدا غيــر أن من أراد أمراً فليقدم قيمته، ومــن طب ابنة فعلية أن يحسب حساب المهر وتكالــيفه، والبــيت وأثاثــه، ومن أراد سفراً فليحضر زاده وراحلته، وإلاّ فهيهات أن يؤخذ الــشيء، وأن تكون العروس، أو يكون السفر، فخطيبــتكم الــيوم هي الحرية، وخطيبتكم هي الاســتقلال، ورانــدكم المجد العزة. ولكن أين المهر، وأين القيمة، وأين الزاد!!!؟؟

لا تحسب المجد تمــراً أنت آكله

لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا

ألا وإن المهــر والقــيمة والــزاد هو التمــسك بــدين الله، والاعــتماد علــى الله، والاعتــصام بحبل الله. وتزودوا فإن خير الزاد التقوى.

ولــو تــصفحنا دواويــن خطــبه المخطوطة، لما اختلفت عن أواخر خطبه التي ألقاهــا علــى المنبر في الجامع الحميدي حيث كــان الــناس يــصلون فــي المسجد والرواق وحديقــة المــسجد والشارع المقابل، لأنه كان يلقي علماً وفكراً، وينطق صدقاً وعدلاً، ويعمل بإخلاص منقطع النظير.

الواعظ

كثيــراً ما رأيت وسمعت الناس يبكون مــن مــواعظه سواء في الجامع الحميدي أو جامــع أبــي عابد، وكذلك كانت النساء اللاتي يجلسن في السدة (الطابق الثاني في أبي عابد) أو خلف الستارة في الحميدي.

وكــان يوجه مواعظه للشباب والطلبة لأنهم طليعة الأمة ومستقبلها المشرق، وأملها في النهوض والتقدم فكان يناشدهم ويشجعهم، ويغــذيهم بالكلمــات الصادقة التي تخرج من القلب لتستقر في القلب.

قــال رحمــه الله: "أنت تعلم أن الدين عقــيدة وعمل، عقيدة تبعث في النفس الخوف مــن الله، فــلا تخــاف من سواه، وتجرأ على الحــق ولو كره الظالمون، وتراقب الله مراقبة مــن يراه، فلا تعصيه في أمر، ولا تخالفه في نهــي، وســواء في ذلك سرّنا وعلننا، وحينئذ نكون أحسن ما نكون أخلاقا، والرسول الكريم حــصر رســالته في الأخلاق فقال: إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق.

والــدين يدعونا إلى العمل المتواصل والنــشاط المطــرد، لأن الحياة للعامل النشيط، ولا خيــر للكسول الخامل والمؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف.

ويــوم فهم أجدادنا العرب الدين على حقيقــته كانوا خير أمة أخرجت للناس، ويوم فهمــوه عقــيدة بــلا عمل تواكلوا وتقاعدوا، والــتهوا فــي القال والقيل، فسبقهم العاملون، وحكمهم الطامعون".

وكــان رحمــه الله يكــتب في جريدة الفــرات التــي تحولت إلى مجلة عام ١٩٣٨ والتــي كــان يــشرف عليها أحمد المصطفى صــاحب مطــبعة الفرات والأستاذ الشاعر عبد الجبار الرحبي.

ولم أسمع موعظة واعظ بعده تعدل ما قاله أو بعضه، منذ عام ١٩٦٧ إلى الآن.. حيث طاشت مواعظ الواعظين في متاهات كثيرة، وفي أودية متشعّبة.

مؤلفاته

لم يكن رحمه الله ممن يحب التأليف والكتابة، ولكنه كان منكباً على القراءة، وكان غزير التردد على المساجد لإعطاء الدروس في المناسبات والجُمع والعيدين. وقد أخبرني قبيل وفاته رحمه الله أنه كتب كتاباً صغيراً في النحو، وآخر في الحديث، ومجموعة خطب منبرية، ومحاضرة عن العصبية ألقاها في قاعة المركز الثقافي بدير الزور بعد إحداثه عام ١٩٦٠، وأنه ينوي طباعتها حينما تسنح له الفرصة المناسبة، ولكن الفرصة المناسبة لم تسنح، وما كتبه لم يطبع.

مدرس في المساجد

بقي الأستاذ حسين السراج قرابة ثلاثين سنة مدرساً في وزارة المعارف (التربية) وكان خلال هذه الفترة ينتقل من مسجد إلى آخر يلقي دروساً، أو يؤم الناس، أو يلقي خطباً، وربما أعطى درسين في مسجد واحد خلال اليوم.

وكثيراً ما كنت أطلب منه أن يلتزم بمسجد واحد لنلتقي فيه ونسمع منه، لكنه كان يجيبني دائماً: "إن الناس في هذا الزمان قل إيمانهم وفترت هممهم، فأنا ألاحقهم إلى أماكنهم" وطبع ذات يوم برنامجاً لدروسه وأماكنها ووزّعه على معارفه، وأُلصقت نسخ منه في الأماكن العامة وأبواب المساجد وهو:

- السبت: في جامع الراوي – فقه – متن أبي شجاع.
- الأحد: في جامع الحميدي – حديث – رياض الصالحين.
- الإثنين: في جامع ملا علي – تشريع – سبل السلام.
- الثلاثاء: في جامع السراي – تفسير – قرآن كريم.
- الأربعاء: في جامع الراوي – فقه – متن أبي شجاع.
- الخمسي: في جامع أبي عابد – حديث – رياض الصالحين.
- الجمعة: في جامع الحميدي – خطبة الجمعة.

وقد استمر يعمل بهذا البرنامج لأكثر من عام منذ إحالته على التقاعد عام ١٩٦٦م إلى آخر ساعة من حياته.

وكان رحمه الله من قبل يعطي دروساً في جامع الوسط (جامع دير العتيق الكبير) وجامع ملا علي حيث كنت أحضر بعضها في

الوسط وأداوم بشكل منتظم لدروسه في جامع ملا علي بحضور الشيخين مصطفى اليساوي وملا أحمد التدمري حيث كان الأول مؤذناً وكان الثاني خطيباً، أما في السنة الأخيرة من حياته فقد كان يعطي دروس رمضان في جامع أبي عابد للرجال في الحرم وللنساء في السدة (الطابق الثاني) وإنني لأعتز بالتلمذة على يدي هذا الشيخ الجليل الذي خسرته المدينة، ولم يأت بعده مثله.

وفاته

كان رحمه الله علماً بارزاً في محافظة دير الزور، وكان عالماً فذاً. وإذا ما أفل نجم العالم عندنا، ترك فراغاً يصعب أن يُسد إلاّ بشخصية مثيلة له، لندرة العلماء فيها.

فقد ذهبت كعادتي إلى جامع أبي عابد، لسماع الدرس الذي يلقيه بعد صلاة العصر في رمضان، فلم أجد الأستاذ في مكانه في الصف الأول يقرأ القرآن كعادته، وسألت عنه فقالوا: لم يحضر، وسألنا بعض المصلين فما عرفوا عن سبب غيابه شيئاً. فصلى أحدهم بالناس إماماً، ولم يُلق درسٌ بعد عصر ذلك اليوم، وانفضّ الناس يتساءلون.

قال أحدهم: إنه مريض.

وقال آخر: غير ذلك.

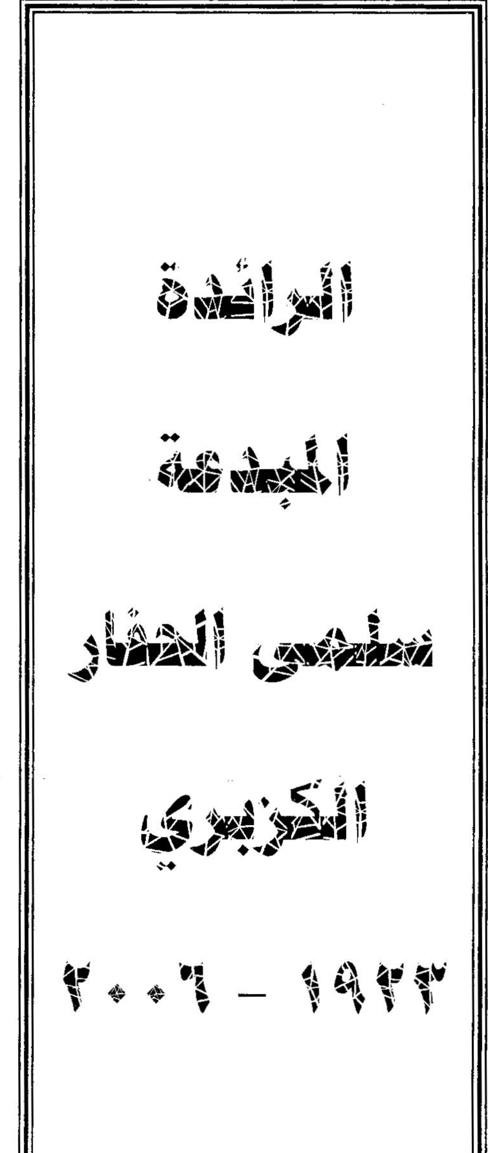
وذهبت مع شخصين إلى داره لاستطلاع سبب التأخر، وخاصة أننا سمعنا من أحدهم كلمة (مريض) وتقدمت فطرقت الباب، فخرج ولده سامي فلما سألته عن سبب عدم حضور الأستاذ إلى الجامع، رأيت الدموع تترقرق في عينيه فقال: إنه مريض. وعرفت من لهجة كلامه وتقاسيم وجهه أنه في حالة احتضار، فعدنا إلى بيوتنا وفي المساء مر عليَّ أحد الأصدقاء فقال لي: لقد مات شيخك السراج، فبكيت كثيراً بعد أن دخلت غرفتي وأغلقت الباب منفرداً فيها.

لقد مات رحمه الله مساء يوم الأحد ٢٠ رمضان ١٣٨٦هـ الموافق ١٩٦٨/١/١م بعد العصر وقبيل الإفطار، وكان دعاؤه بعد درس العصر في جامع أبي عابد في شهر رمضان: "اللهم اجعلنا من عتقاء شهر رمضان، اللهم اجعلنا من عتقاء شهر الصيام.."

وفي اليوم الثاني (الإثنين) خرجت مدينة دير الزور تشيع شيخها الراحل. وأكاد أن أجزم أن المدينة شيباً وشباناً قد خرجت خلف جنازته التي حملوها على أكتافهم. كالعادة من بيته في حي عبد العزيز (العرضي) إلى المقبرة جنوبي مقاطع الرخام الكلسي التي تبعد نحو ثلاثة كيلو مترارت عن بيته. حتى تعب الذين يحملون الجنازة لبُعد الطريق. وثقل جسمه رحمه الله، مما دعا الكثيرين حينها إلى استنهاض همم حامليها بالتناوب والإسراع بها.

وقد دفن في مثواه الأخير وألقيت بعض الكلمات التأبينية بعد ذلك.

لقد عاش ستين سنة بين القراءة والعبادة والتدريس. رحمه الله وأجزل مثوبته.



كاتبة وأديبة مرموقة وشاعرة بالفرنسية والإسبانية وقاصة بارعة وروائية متميزة وباحثة مدققة.

ولدت في الأول من أيار عام ١٩٢٣ في حي الشاغور، والدها المناضل الوطني لطفي الحفار (١٨٨٨- ١٩٦٨) كان وزيرا للمالية والداخلية ورئيسا للوزراء.

نشأت في بيت علم وثقافة وجهاد، وكان لذلك الأثر العميق في تكوين شخصيتها.

تلقت دراستها الابتدائية والثانوية في معهد راهبات الفرنسيسكان بدمشق وأتقنت اللغة الفرنسية وألمت بالإنكليزية.

تعلمت اللغة العربية على يد والدها ثم أكملت دراستها على يد الأديبة الكبيرة ماري عجمي (١٨٨٨ - ١٩٦٥) مؤسسة مجلة (العروس) الشهيرة.

أسست عام ١٩٤٥ مع رفيقاتها جمعية ثقافية وهي (مبرة التعليم والمواساة) لتربية الأطفال اللقطاء منذ ولادتهم وحتى بلوغهم سن السابعة من العمر.

مثلت سورية في مؤتمر حقوق المرأة الذي عقد في بيروت عام ١٩٤٩ وطالبت بمنح المرأة حقوقها الكاملة.

كانت مولعة بالموسيقى العالمية وتعلمت العزف على البيانو وكانت تمارس رياضة التنس والسباحة والتصوير.

ساهمت في الصحافة وكتبت للإذاعة عدة حلقات كان أهمها حديثها عن (هيلين كيلر) الفتاة المعجزة، وساهمت في لجان أدبية والإشراف على مسابقة القصة في الإذاعة.

باكورة إنتاجها

نشرت كتابها الأول (يوميات هالة) سنة ١٩٥٠ وهو مذكراتها، كتبها وهي طالبة لم تتجاوز السابعة عشرة وأهدت هذه المذكرات إلى روح الزعيم سعد الله الجابري.

قال عنه الناقد مارون عبود (١٨٨٦ - ١٩٦٢): "كتاب مصقول الديباجة جميل التعبير والأسلوب فكأن العبارة قد أسلست قيادها لكاتبته الأديبة سلمى الحفار الكزبري".

ونشرت كتابه الثاني (حرمان) مجموعة قصص موضوعة ومعربة صدر عن دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٢ وعلّق الأديب نظير زيتون (١٩٠٨ - ١٩٦٧) على قصتها (ثلاثة أيام) قال: "إنها صوّرت لنا مأساة الجنس والدين تصويراً بليغاً".

أما كتابها الثالث (زوايا) فتضمن مجموعة من القصص والحكايات صدر عن دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٥.

لقد تأثرت سلمى بالشعراء الفرنسيين في أثناء دراستها في معهد راهبات الفرنسيسكان وكتبت قصائد بالفرنسية وأصدرت ثلاثة دواوين بالفرنسية هي:

الأول بعنوان (الوردة المنفردة) صدر في بوينس أيرس الأرجنتين عام ١٩٥٨.

والثاني بعنوان (نفحات الأمس) صدر في باريس عام ١٩٦٥ وتُرجم إلى اللغات الإيطالية والبرتغالية والإسبانية.

والثالث بعنوان (بوح) صدر عن دار طلاس بدمشق عام ١٩٩٣.

ولها ديوان شعر باللغة الإسبانية بعنوان (عشية الرحيل) وترجمت قصائده إلى اللغة الفرنسية مع مجموعة من شعراء إسبانيا المعاصرين وتقديم مؤسسة دار الشعر في مدريد عام ١٩٩٤.

زواجها

كان زواجها الأول من السيد محمد كرامي في طرابلس لبنان سنة ١٩٤١ وهو شقيق الزعيم عبد الحميد كرامي، أنجبت منه ابنها (نزيه) ولكنها ترملت بعد ولادته بشهر واحد وعادت إلى دمشق وتابعت دراستها.

وفي عام ١٩٤٨ كان زواجها الثاني من الدكتور نادر الكزبري ورزقت منه ابنتين هما (ندى ورشا):

كان الدكتور الكزبري سفيراً لسورية في كل من الأرجنتين وتشيلي ومصر وإسبانيا.

سافرت معه إلى إسبانيا ودرست اللغة الإسبانية ونالت الشهادة من جامعة مدريد وأخذت تلقي محاضرات باللغة الإسبانية عن المرأة العربية في التاريخ. وشاركت في عدة مؤتمرات وندوات أدبية واجتماعية.

ومن أعمالها الأخيرة دراسة موثقة عن حياة والدها لطفي الحفار (١٨٨٥- ١٩٦٨) مذكراته، حياته وعصره، صدر عن دار الريس عام ١٩٩٧.

وصدر لها آخر كتاب (ذكريات إسبانية وأندلسية مع نزار قباني ورسائله لها) صدر عن دار النهار عام ٢٠٠١.

لقد كتبت سلمى في مختلف الفنون الأدبية وتوزعت كتبها بين القصة والرواية والشعر والدراسة والتحقيق والمقالة والسيرة.

وتصف سلمى (القلم) تقول:

"إنه قدس الأقداس وهو جزء من شخصيتي، والوسيلة المثلى التي أعبّر فيها عن مشاعري ومعاناتي وأفكاري..

وأنا أحترم جداً الكلمة..

وأقرأ كثيراً لكتاب معروفين في عدة لغات..

القلم جزء من روحي وكياني..".

حفلات التكريم

أقيم للأديبة سلمى عدة حفلات تكريمية منها في بيروت في شهر حزيران عام ١٩٥٥ وقد ألقت السيدة سهام ترجمان بهذه المناسبة محاضرة استعرضت فيها نشاطاتها وأعمالها الأدبية.

كما كُرّمت عام ١٩٩٩ ضمن جائزة الشيخة فاطمة بن هزاع بن زايد آل نهيان.

وكُرّمت في المهرجان اللبناني للكتاب الذي نظمته الحركة الثقافية بأنطلياس في آذار عام ٢٠٠٣.

وقّعت الأديبة سلمى في هذا الاحتفال مجموعة من كتبها في قاعة المسرح، وبعد التوقيع ألقت مديرة الجلسة الأديبة تيريز الدويهي حاتم كلمة جاء فيها:

"أديبة شامية المولد، سيدة رائدة جسدت تطلعات المرأة العربية في شتى الميادين، لعبت دوراً مميزاً في العمل الثقافي والالتزام بقضايا الإنسان والنضال الريادي".

الجوائز التي نالتها

منحتها الحكومة الإسبانيه وساماً رفيعاً إلى جانب شريط السيدة إيزابيلا كاثوليكا عام ١٩٦٥ تقديراً لأعماله الأدبية وبخاصة في مجال الدراسات الإسبانية.

ومنحتها جامعة باليرمو في صقلية جائزة البحر الأبيض المتوسط الأدبية عام ١٩٨٠.

وفازت بجائزة الملك فيصل العالمية للأدب العربي عام ١٩٩٥ بترشيح من مجمع اللغة العربية بدمشق، وكان موضوع الجائزة الدراسات التي تناولت أعلام الأدب العربي الحديث.

وفاتها

وافتها المنية يوم الجمعة في ٨/١١/ ٢٠٠٦ في بيروت خلال فترة الحرب التي شنّها العدو الإسرائيلي على البنان، بقيت سلمى في بيروت مع الصامدين رغم أنها كانت بحاجة ماسّة جداً إلى رعاية لأنها كانت تعالج بنظام غسل الكلى. وبرحيلها فقد الأدب العربي أديبة كبيرة ظهرت في الساحة الأدبية في وقت مبكر لم تكن تجرؤ النساء على ممارسة الكتابة، ووريت الثرى في مقبرة الشهداء في بيروت.

وصية سلمى

"يا أولادي أحبوا بعضكم

أرجو أن تهدوا مكتبتي في بيروت إلى دار الكتب الوطنية لكي يُنتفع بها.

وأطلب منكم أن لا تلبسوا السواد بعد موتي لأنه لم يكن مشكوراً عند المسلمين المؤمنين في صدر الإسلام.

وتأكدوا بأنني أغادر الحياة على الأرض شاكرة ربي العظيم على نعمه التي غمرني بها وطالبة منه الرضا عليكم وعلى أولادكم ومن تحبون والرحمة والمغفرة.

وفقكم الله ورعاكم".

حفلة التأبين

بمناسبة مرور أربعين يوماً على رحيل الأديبة سلمى الحفار الكزبري أقامت وزارة الثقافة وبرعاية وزير الثقافة الدكتور رياض نعسان آغا حفلاً تأبينياً يوم الأربعاء الواقع في ٢٠ أيلول ٢٠٠٦ في مكتبة الأسد بدمشق.

ألقيت خلاله كلمات الوزارة وأصدقاء الفقيدة والأدباء والكتاب.

ألقى كلمة راعي الحفل بالنيابة الدكتور علي القيم قال:

"كانت سلمى سفيرة لسورية أينما حلّت وإن ما قدمته سوف يحتاج إلى ساعات كي نفيها شيئاً من حقها أو من جميلها علينا فيما قدمته وما أبدعته..".

مؤلفات سلمى الحفار الكزبري

١- (يوميات هالة) - دار العلم للملايين - بيروت ١٩٥٠ - وأعيدت طباعته ١٩٩٥.

٢- (حرمان) - مجموعة قصص موضوعة ومعرّبة - دار المعارف بمصر ١٩٥٢.
٣- (زوايا) - مجموعة قصص وحكايات - دار المعارف بمصر ١٩٥٥.
٤- (الوردة المنفردة) - شعر باللغة الفرنسية - بوينس آيريس - الأرجنتين - ١٩٥٨.
٥- (نساء متفوقات) - سير مكثفة لنساء شرقيات وغربيات - دار العلم للملايين) - بيروت ١٩٦١ تقديم الدكتور قسطنطين زريق.
٦- (عينان من أشبيلية) - رواية - أذيعت على حلقات من الإذاعة البريطانية العربية بلندن - دار الكاتب العربي - بيروت ١٩٦٥.
٧- (نفحات الأمس) - ديوان شعر بالفرنسية - باريس ١٩٦٥ - مقطوعة أدبية - وقد ترجم إلى اللغات الإيطالية والبرتغالية والإسبانية - صدر عام ١٩٦٦.
٨- (الغريبة) - مجموعة قصص - مكتبة أطلس بدمشق - ١٩٦٦.
٩- (عنبر ورماد) - سيرة ذاتية - الجزء الأول - دار بيروت للنشر ١٩٧٠.
١٠- (في ظلال الأندلس) - محاضرات - دار ألف باء - دمشق ١٩٧١.
١١- (البرتقال المرّ) - رواية - دار النهار للنشر - بيروت ١٩٧٥.
١٢- (الشعلة الزرقاء) - رسائل جبران خليل جبران المخطوطة إلى ميّ زيادة تحقيق المؤلفة والدكتور سهيل بديع بشروئي - الطبعة الأولى: دمشق وزارة الثقافة سنة ١٩٧٩ - والطبعات اللاحقة مؤسسة نوفل - بيروت وقد ترجمت هذه الرسائل إلى اللغات الفرنسية والإنكليزية والإيطالية والإسبانية وأعيدت طباعتها في لندن وباريس هذه السنة ١٩٩٦.
١٣- (جورج صاند) - حبّ ونبوغ - سيرة - مؤسسة نوفل بيروت ١٩٧٩.
١٤- (ميّ زيادة وأعلام عصرها) - رسائل مخطوطة بينها وبين أعلام النهضة العربية الحديثة لم تنشر من قبل ما بين ١٩١٢ و ١٩٤٠ - مؤسسة نوفل بيروت ١٩٨٦.
١٥- (حزن الأشجار) - قصص قصيرة - مؤسسة نوفل - بيروت ١٩٨٦.
١٦- (ميّ زيادة أو مأساة النبوغ) سيرة النابغة مي موثقة صدرت في جزأين عن مؤسسة نوفل - بيروت - ١٩٨٧.
١٧- (الحب بعد الخمسين) - مذكرات عن حبّ الأحفاد وحرب لبنان - دار طلاس للنشر - دمشق - الطبعة الأولى ١٩٨٩ - الثانية ١٩٩٢ - الثالثة ١٩٩٣ وقد ترجمت هذا الكتاب إلى اللغة الإنكليزية الكاتبة الكندية السيدة شكريت ميرليت في فانكوفر وصدر عام ١٩٩٢.
١٨- (نساء متفوقات) - طبعة جديدة موسّعة سير نساء غربيات وشرقيات - دار طلاس للنشر - دمشق ١٩٩٠.
١٩- (بصمات عربية ودمشقية في الأندلس) - وزارة الثقافة بدمشق - ١٩٩٣.
٢٠- (بوح) - ديوان شعر باللغة الفرنسية - دار طلاس للنشر - دمشق ١٩٩٣.
٢١- (عشية الرحيل) - ديوان شعر باللغة الإسبانية ترجم قصائده باللغة الفرنسية مجموعة من شعراء إسبانيا المعاصرين - تقديم مؤسسة دار الشعر في مدريد الكاتبة النابغة السيدة فينا كالديرون - مدريد - ١٩٩٤.
٢٢- (يوميات هالة) - طبعة جديدة - دار العلم للملايين - بيروت ١٩٩٥.
٢٣- (لطفي الحفار) ١٨٨٥ - ١٩٦٨ - مذكراته حياته وعصره - رياض الريّس للكتب والنشر - بيروت ١٩٩٧.
٢٤- ذكريات إسبانية وأندلسية مع نزار قباني ورسائله - دار النهار ٢٠٠١.